عندما يختلف الرجال

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

❖ **الكتاب: عندما يختلف الرجال**

❖ **المؤلف: محمد كامل الباز**

❖ **نوع العمل: رواية**

❖ **الطبعة الأولى 1443 هـ - 2021 م - القاهرة**

❖ **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

❖ **رقم الإيداع: 22059 / 2021**

❖ **الترقيم الدولي ISBN: 5 - 242 – 994 – 977 – 978**

❖ **الرقم الكودي في ببلومانيا: bl009623901360**

❖ **تدقيق: فيرمين رمضان**

❖ مدير عام: جمال سليمان - مدير إداري: ديانا حمزة – مدير تنفيذي: محمد جلال

❖ العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة

عنوان (2): 29 شارع الكمال – الأميرية – القاهرة

❖ تليفاكس: 002026337855 - 002026064518

❖ محمول: 00201208868826 – 00201030504636 – 00201210826415

❖ صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

❖ الموقع الإلكتروني: www.bibliomaniapublishing.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

عندما يختلف الرجال

رواية

د. محمد كامل الباز

بيبلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS

ببلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS

www.bibliomaniapublishing.com

2021

© جميع الحقوق محفوظة

مقدمة

الاختلاف بين الناس نعمة كبيرة، من الممكن ألا نشعر بتلك النعمة ولكن لك أن تتخيل أن جميع أصحابك وإخوانك نفس الصفات، زوجتك وكل النساء نفس الشخصية، كل رؤسائك ورفقائك في العمل نفس السلوك، بالطبع شيء ممل ويدعو لعدم الراحة، التباين والتعدد يقود إلى الامتزاج والتنوع، ما تجده عند فلان تفتقده عند علان، وما ينقص في هذا تجده في ذاك، وقد قيل سابقًا (لولا اختلاف الأذواق لبارت السلع).

نحاول أن ندخل في المضمون أكثر ونتعرف على الاختلافات السلوكية بين الرجال، فهذا أمر يستحق التأمل والتركيز؛ فمن الممكن أن يتعرض الرجال لمواقف متشابهة؛ ولكن تجد ردة فعل مختلفة لكل واحد، وعند حدوث المصائب والأحداث الجسام تتباين أكثر تلك التصرفات بين الرجال؛ فتجد رجالا بمعنى الكلمة وتجد آخرين لا يعرفون من الرجولة إلا الكلمة، في عصرٍ ما ألمَّت بعض الكوارث بالأمة، فاختلف الرجال بالأمة واختلفت ردود أفعالهم، سوف نسرد في أربعة فصول ردة فعل الرجال عند تلك المصيبة وكيف انقسموا إلى رجالٍ صادقين ومجرد ذكورٍ كاذبين.

الفصل الأول

في أوائل القرن السابع الهجري، كان يعيش رجلان في بلاد العراق. بطلنا الأول وهو شمس الدين نوفل وهو يبلغ من العمر عشرين عامًا حيث يعيش مع ابن خالة عامر بن مشرف الذي يبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا.

عمل الرجلان في التجارة وكانا يتناوبان على دُكانهما؛ تختلف عليهما الأوقات، عامر يأخذ الفترة الصباحية ويتبعه شمس الدين في المساء، ترافق الرجلان منذ زمن وأخذا دكان جدهما وكانا يسكنان في منزل قريب من الدكان، تشابهت حياتهما في معظم الأحوال، العمل والمسكن والعمر؛ بل والحالة الاجتماعية، حيث مازال الشابان بمفردهما لم يتزوجا، تشابهت معظم الظروف والأحوال ولكن تغيرت الطبائع والخصال، نشأ شمس الدين رجلًا شجاعا، تقيا، ورعًا، صادقًا، أمينًا في تجارته بينما كان ابن خالته مُحبًا للدنيا غيرَ صادقٍ، عاشقًا للمال والكسب السريع؛ مما أثر على أمانته في التجارة، لذا كان معظم أهل بغداد يثقون في شمس الدين ويحرصون على الشراء في أوقات تواجده.

أخذ شمس الدين كثيرًا في نصح عامر ومحاولة توضيح أن الدنيا ما هي إلا دار مؤقت للدار الدائمة وعليه يجب ألا يخون الأمانة وأن يكون أمينًا في تجارته حتى يثق به الناس، ولكن للأسف كان ولع عامر بالدنيا كبيرًا وصعبَ التحكم، وكان شمس الدين يتركه

أملًا في أن تغيره الأيام ويعرف الحقيقة. ولكن هل كانت الأيام والمتغيرات كفيلة بتغيير عامر أم ماذا...

الحقيقة أنه بدأ في أواخر القرن السادس الهجري متغيرات عالمية قد تؤثر على طبيعة الناس، بل على حياتهم كلها، وبالطبع الظروف الخارجية تؤثر على الحياة الداخلية، فما تلك المتغيرات التي طرأت على العالم تلك الحقبة؟

لنبتعد قليلا عن عامر وشمس الدين ولنخرج للمجتمع الدولي آنذاك؛ حيث كان ينقسم غالبا بين قوتين رئيسيتين، القوة الأولى وكانت العالم الإسلامي الذي كان يتمثل في - الخلافة العباسية تسيطر على العراق وخصوصًا بغداد (مكان تواجد عامر وشمس الدين) - مصر - الشام - الحجاز - اليمن كانت تحت أمرة الحكم الأيوبي.

أما بلاد المغرب والأندلس كانت تحت حكم دولة الموحدين والتي حكمت من ليبيا شرقا إلى المغرب غربا ومن بلاد الأندلس إلى وسط إفريقيا جنوبًا- الدولة الخوارزمية والتي سيطرت على معظم الشرق من غرب الصين إلى إيران غربا -الهند وكانت تحت حكم الغوريين.

فارس (إيران) كانت تحت حكم الخوارزميين والشيعة.

الأناضول (تركيا) كانت تحت حكم السلاجقة.

وهذه هي القوة الأولى توزعت بين كل هؤلاء بعد أن كان للإسلام دولة واحدة أسسها المصطفى (صلى الله عليه وسلم) واعتبرها جسدًا واحدًا وحافظ عليها الخلفاء الراشدين، تفرقت تلك الدولة

لتصبح أقسام متعددة تختلف مع بعض بل وأحيانًا تحارب بعضها البعض.

خريطة(٢): الدويلات و الإمارات الإسلامية في أوائل القرن السابع الهجري

كانت الخلافة العباسية تسيطر على بغداد فقط كما ذكرنا، وأصبح الخليفة العباسي هو رمز صوري - مثل مُلكه انجلترا الآن - يملك كل شيء في الظاهر وفى الحقيقة لا يحكم إلا بغداد.

ولكن ما هي القوة الثانية في العالم؟

هي الصليبيون، وقد اتخذت الدولة الصليبية من غرب أوروبا المركز الرئيسي لهم وكانت لهم بعض التجمعات المتفرقة أيضًا في:

- الإمبراطورية البيزنطية في الغرب الأوروبي .
- أرمينيا (شمال فارس)
- الكورج (جورجيا الآن)

-تجمعات داخل العالم الإسلامي وكانت إمارات صليبية بالشام وتركيا مثل أنطاكية، عكا، بيروت.
انقسم العالم فعليا بين هاتين القوتين وكان التوازن موجودًا، والكرُّ والفرُّ بين المعسكرين مستمر.
تعلمنا من علماء الأحياء والبيئة أنه بمجرد اختفاء عنصر في دورة التوازن البيئي فإن الاختلال سيحدث، ولكن في أواخر القرن السادس الهجري حدث اختلالٌ رهيبٌ في دورة التوازن العالمي، قوة جديدة من نوع وطراز مختلف، استراتيجية مستحدثة وحروب لم نعهدها من قبل، ظهر المارد التتري على الساحة ليقلب كل الموازين، وأصبح قوةً ثالثةً على الساحة، بل إن شئت فقل أصبح القوة الأولى.
جاء ليظهر تغيرات كبيرة في طبائع الناس، والرجال بصفة خاصة، جاء كامتحان صعب ومعقد ليغير حياة الناس في معظم بقاع الأرض، حتى حياة عامر وشمس الدين ستتغير بقدوم التتار، ولكن من هم التتار؟
ظهرت قبائل متفرقة في عام ٦٠٣ هجريا في منغوليا، استطاع الأب الروحي لهم جنكيز هان (تيمور لنك) أن يجمعهم ويلم شملهم ويوحدهم في الوقت الذي تفرق فيه رجال آخرون وتناحروا. كان سفاحًا، سفاكًا للدماء، به كمية من الشر لو وزعت على أهل الأرض لوسعتهم، ولكنه كان قائدًا محنكًا استطاع في وقت صغير أن يوجد للتتار دولة، فبدأ بالتهام الصين، منغوليا، فيتنام، كامبوديا، تايلاند، سيبيريا، وأقام مملكةً تمتد من كوريا

شرقا إلى حدود الدولة الخوارزمية غربا ومن سهول سيبيريا شمالًا إلى بحر الصين جنوبًا.

كيف وصل التتار لكل هذا سريعًا، أصبح مارد يلتهم كل شيء.

تميزت حروب التتار ببعض الصفات:

- كثرة عددية رهيبة وجحافل جرارة.

حروب دموية لا تهدف لنشر عقيدة أو حضارة أو فرض معتقد، بل ظن البعض أن هدف التتار هو إفناء الجنس البشرى .

- كانت حروب بلا قلب، لا يراعى فيها المدنيون أو العزل.

- غير موجود عندهم ثقافة الآخر، فقد كان كل شعارهم سياسة القطب الواحد.

- عدم احترام العهود والمواثيق.

بدأ ناقوس الخطر يدق في العالم الإسلامي باحتكاك واضح من جنكيز خان للدولة الاسلامية في خوارزم. وأصبح فتيل الحرب جاهزًا للاشتعال، تباينت ردود الأفعال والتي وصلت إلى العراق،

هي بعيدة بكل المقاييس ولكن كان أصداء الحرب ترن في كل مكان، وبدأ عامر وشمس الدين يتحاوران فيما يحدث.

كان شمس الدين رجعيًا بمفهومنا الحديث، يميل لكل ما يوافق هويته ومعتقده، متشبثًا بالعادات والتقاليد، محبًا للدين متبعًا لأوامره، على النقيض من عامر الذي رأى في التتار قوة حديثة متقدمة في التجهيز العسكري، حتى لو كان مختلفًا معها في الهوية والعقيدة؛ بل وفى الطريقة الوحشية التي ينتهجها التتار، والحقيقة أن الفرق بين عامر وشمس الدين ليس فقط أن هذا يميل للدين ويرجع إليه والآخر يحب أي شيء جديد حتى لو كان مصدرًا للقتل والشر، فحقيقةً أنا لا أرى في عامر إلا شابًا مصابًا بهزيمة نفسية شديدة جعلت منه إنسانًا مولعًا بكل ما هو قوي ومتجبر، حتى لو كان عدوًا، وهذا الفرق موجود الآن في انبهار أناس كثير بما تقدمه إسرائيل والغرب على المستوى السياسي من ديموقراطية مزعومة تجعلهم يكرهون كلى شيء في بلادنا، وأيضًا أي تقدم عسكري أو طبي ينبهرون به انبهارًا يصل لحد التقديس، إن كثيرًا من هؤلاء يصل الأمر معهم بالتماس الأعذار لأعدائهم حتى في مواجهة إخوانهم، وبالفعل حدث هذا بين عامر وشمس فقد ذاع صيت جنكيز خان وزادت أطماعه وبدأ يفكر جديًا في حلم آخر بعد التهامه للصين؛ وهو القضاء والاستيلاء على كنوز العباسيين، ولكن لن يجد الطريق مفروشا بالورود إلى بغداد، ولكنه بدأ العمل بالفعل وأول ما سيصطدم به هي الدولة المتاخمة للحدود (خوارزم) التي يملكها محمد بن خوارزم، فكر جنكيز خان في افتعال الحرب كثيرًا ولكنه لم يجد سببًا مقنعا إلى أن جاء له

السبب على طبق من فضة، قبض في خوارزم على مجموعة من التجار المغول وتم قتلهم وبالطبع هاج جنكيز خان من ذلك الحدث وطلب من ملك خوارزم تقديم الجناة ليتم محاكمتهم في أرض التتار، رفض بالتأكيد محمد بن خوارزم وأكد أنه سيتولى التحقيق بنفسه وإذا ثبت على الجناة سيتم معاقبتهم وفق الشريعة الإسلامية، اختلف الفريقان وصدر هذا الخلاف لكل أنحاء البلاد وإلى الخارج لآلاف الأميال حتى وصل لشمس الدين وعامر، فشمس الدين قال:

- إن محمد بن خوارزم محقٌ، فالأرض ملك للمسلمين، والجريمة وقعت على أرض مسلمة، بل ويشاع أيضًا أن جنكيز خان قد أرسل رجالًا لقتل هؤلاء التجار كي يفتعل حربًا توسعية.

لكن عامر كان جاهز في الدفاع عن حق التتار في الدفاع عن نفسهم وأن محمد بن خوارزم سيدخل نفسه في حرب خاسرة وبالفعل أثناء حديثهم وصلت الاخبار ان التتار في اسبوع بدأوا يدخلون إلى الدولة الخوارزمية وأن محمد بن خوارزم تقهقر للخارج وتحصن في المدن التالية، وهنا أبدى عامر إعجابه بما سمع من تقدم جنكيز خان، رغم أنه مختلف معه في كل شيء، ولكنها الهزيمة النفسية، الإرجاف في أكمل معانيه؛ وهو أن تصل بك الدرجة أن تجمل أو تلتمس العذر لعدوك في أن يفعل كل شيء حتى لو كان مع بني جلدتك في غلاف اسمة القوة والتقدم، فقد كان جنكيز خان في نظر عامر أخذًا بأسباب النجاح والقوة، وهو مالم يجده عنده محمد بن خوارزم.

توالت مآسى الدولة الخوارزمية على يد التتار؛ بل أصبح جنكيز خان كالذئب الذي يفترس كل ما يجده أمامه.
التتار كما ذكرنا لم تكن حروبهم مجرد حروب توسعية فقط؛ بل غلب عليها الانتقام والقتل وسفك الدماء حتى ظن البعض أن التتار جاءوا ليقضوا على الجنس البشري .
-قضوا على مدينة بخارى وارتكبوا بها أشد المذابح .
انتقلوا إلى سمرقند واستدرجوا أهلها للخروج ثم أطبقوا عليهم وقتلوا أكثر من سبعين ألف من رجالها المدنيين الذين خرجوا ليدافعوا عن المدينة بعد أن رفض الجيش النظامي الخروج للحرب، بعد أن قضوا عليهم عادوا ليحاصروا المدينة وطلب الجيش الخوارزمي الأمان مقابل التسليم، اشترط التتار ترك الأسلحة والحصون مقابل الأمان ووافق الخمسون ألفًا المتخاذلون من الجنود على ذلك.
ما الفرق بين المتخاذلين والمناضلين؟
لقد لقوا مصيرًا واحدًا وهو الموت، ولكن شتان بين الثرى والثريا، فهل يتساوى الرجال بالذكور أم هل من خرج ليضحي بنفسه وحياته من أجل الدفاع عن أرضه وعرضه يماثل من قبل الذلة والهوان وقرر تسليم الوطن للأعداء؟
هؤلاء رجال، وإن شئت مجازًا فقل وهؤلاء للأسف رجال.
ما زال جنكيز خان يريد العاصمة اورجاندا عاصمة الدولة الخوارزمية، والتي تراجع لها محمد بن خوارزم، أرسل له كتيبة من عشرين ألف مقاتل فقط لكي تحاصره في عقر داره، وأرجو منك

عزيز القارئ أن تتابع ما ستفعله تلك الفرقة الصغيرة لتقف على ما كان عليه الرجال آنذاك.

الأمر ليس سهلًا، حول مدينة اورجاندا نهر جيخون وهو نهر كبير يُصعِّب من مهمة الوصول للمدينة مما جعل أهلها في دعة من أمرهم، فماذا فعل التتار؟

قاموا بعمل صناديق خشبية كبيرة مغطاة بالجلود بسبب المياه يضعوا بها أسلحتهم وأمتعتهم ونزلوا سابحين في ذلك النهر ومن خلفهم خيولهم والخيول تجيد السباحة كما نعلم، وفوجئ محمد بن خوارزم وجنوده بالأمر فماذا فعل محمد بن خوارزم؟ هل استفذه الأمر وقرر القضاء على تلك الفرقة قليلة العدد؟

لا والله، أخذ خاصته وانتقل إلى نيسابور (في إيران)، وأخذت تلك الفرقة تتبعه وهي تسير بكل أريحية في بلاد المسلمين .

وصلت الكتيبة التتارية إلى نيسابور، وعندما علم محمد بن خوارزم اتجه إلى مازندران ثم الراي ثم همدان، كل هذا في إيران ومحمد بن خوارزم يهرب من التتار كمن يهرب من الدَّيّانة وهم في أثره، وعاد مرة أخرى لمازندران ثم إلى طبرستان على ساحل بحر قزوين، هرب بسفينة ليهرب من التتار ووصل لجزيرة نائية وأصبح معزولًا بها فارًا من الموت، ولكن هل يفر من الموت أحد؟

وما هي إلا أيام وتوفى في هذه الجزيرة وحيدًا شريدًا طريدًا.

وهنا لنا ملاحظتان أو تعليقان، أو إن شئت قل مقارنتان؛ الأولى ستكون بين أهل اورجاندا الذين اطمأنوا وسكنوا وتركوا الجد والعمل، تركوا الاستعداد لمواجهة الخطر القادم واعتمدوا على حاجزٍ طبيعيّ وهو نهر جيخون الكبير، نقارن بينهم وبين صحابة

المصطفى (صلى الله عليه وسلم) الذين رغم قلتهم وحداثة دولتهم ماذا فعلوا عندما علموا بمجيء قريش بتحالفات من شتى الجزيرة العربية لتستأصل شافتهم؟ قاموا وفكروا وأخذوا بالأسباب وحفروا خندقًا كبيرًا بطول حدود المدينة، صعَّب من مهمة الأعداء في الوصول إليهم، وما هي إلى أيام ودبَّ الخلاف بين تحالفات قريش وانفضوا ورجعوا من حيث أتوا، نصر الله أهل المدينة ليس لأن معهم المصطفى صلى الله عليه وسلم)، ولكن أيَّدهم لأنهم كانوا أهل تأييد، كانوا رجالًا أخذوا بأسباب النصر والتمكين فقذف في قلوب قريش وأعوانها الوهن والخوف ورجعوا من حيث أتوا، أما رجال اورجاندا فقد استكانوا وتركوا العمل والعدة واعتمدوا على وجود النهر يحميهم، فحدثت المعجزة وجعل الله التتار يعبرون النهر ليكونوا أمامهم فاستحقوا الهزيمة، حيث كان في اورجاندا وراء نهر جيخون رجال مختلفين تمامًا عن رجال المدينة خلف الخندق.

المقارنة الثانية، وهي بين محمد بن خوارزم الذي مجرد وجد نفسه قرب ساحل بحر قزوين والتتار خلفة أخذ السفن ليهرب وينأى بنفسه ويترك شعبه وبلده المكلف بحمايتهم، تذكرت عندما قرأت هذا بطلنا طارق بن زياد الذي تواجه مع الفرنجة في الأندلس على شاطئ شبة الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا) عام ٧١١ م بجيشٍ متواضع؛ قام ليحمس جنده ويقول (أيُّها الناسُ أين المفر والبحر من ورائكم والعدو من أمامكم؟) وهي الكلمة المنتشرة للقائد الشجاع عبر التاريخ حيث تمكن ب ١٢ ألف جندي من أن ينتصر على مئات الآلاف من الفرنجة في عقر داهم، ذهب

وعبر البحر ليتمكن من البحث عن أرضٍ جديدة، لا هرب من أرضه ووطنه وترك شعبه وقفز في أول سفينة وجدها، ولكن فيمَ العجب؟ فهؤلاء رجال وأولئك رجال من نوع آخر.

بدأت رحلة العودة للفرقة التتارية وهي أشبه بالنزهة التي قضوها وعادوا ولكنها نزهة من نوع جديد، حيث أنها ذهابًا وإيابًا في قلب أراضي أعدائهم، رجعوا من ساحل بحر قزوين لمدينة مازندران وتمكنوا من الاستيلاء عليها بسهولة لا لقوتهم ولكن لأن الرجال الآن من نوع مختلف، ثم إلى مدينة الراي ووجدوا زوجات وأولاد محمد بن خوارزم وكل الكنوز التي كان يخفيها، أخذوا كل هذا وأرسلوه لجنكيز خان في سمرقند واستولوا على كل المدن حتى مدينة قزوين التي أخذوها وقتلوا معظم أهلها.

وصلوا لأذربيجان، مدينة تبريز، التي قرر ملكها السكير مصالحة التتار مقابل السلم، اجتاحوا معظم المدن التالية بما فيهم مدن الصليبيين في أرمينيا والكورج.

لكيلا ننسى فكل ما سبق ليس جيش التتار أو جحافله الجرارة، ليست السيول التي لا تنتهي؛ إنما هي مجرد فرقة تتارية أرسلها جنكيز خان لتتبع محمد بن خوارزم فقط، صالت وجالت في كل الأراضي الإسلامية، تلك الفرقة الصغيرة التي بمجرد وجودها قرب ساحل بحر قزوين انفصلت عن القيادة التتارية المركزية في سمرقند بمسافة قدرها المؤرخين بحوالي ٦٥٠ كيلومتر في مسافة كلها في أرض بلاد المسلمين لو تجرأ أي حاكم هناك وتعرض لتلك الفرقة الصغيرة واحتاجت مددًا أو دعمًا سيكون المدد في تلك الطرق والمسافات لا يقل عن شهور، ولكن لم يحدث هذا والله،

ضربت الذلة والمهانة على هؤلاء الرجال فجعلوا تلك الفرقة الصغيرة تدب الرعب والخوف في بلادهم بل تدخلها وتستولي عليها، أترى هؤلاء الرجال يقارنون بأسود الإسلام السابقين؟ لنرى؛ ولكم الحكم.

عام ٨ هجريا بعث النبي صلى الله عليه وسلم (الحارث بن عمير الأزدي) حيث كان قد أرسله لملك بُصرى يدعوه للإسلام، فقام شرحبيل ابن عمرو الغساني بقتله وكان على تحالف مع هرقل ملك الروم مثله مثل كثير من القبائل في الشام، تضاربت الأنباء عما حدث، حيث كان إهانة للدولة الإسلامية، مما يجعلها مطمعًا لكل المتربصين، فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم سرية مؤتة إلى بلاد الأردن لملاقاة الروم في عقر دارهم، حيث كان عددهم مائتي ألف من العرب والروم يواجهون كم من المسلمين قادمين إليهم؟ لك أن تتخيل ولا تندهش، ثلاثة آلاف رجل فقط! لكن لك أن تنسى الرقم وتتذكر الكلمة وهي **"رجل"** بمعنى الكلمة، ثلاثة آلاف رجلٍ صادقٍ مؤمن له قضية، مطيعٍ لأوامر الله ورسوله، هؤلاء الآلاف الثلاثة بمئات الآلاف من الذين كانوا موجودين في بلاد خوارزم وما حولها، لقد كانت المدة من ٨ هجريا إلى ٦١٧ هجريا كفيلة بعمل تغيير جذري في جينات الرجولة حتى تستطيع فرقة صغيرة تتارية تدخل وتبث الرعب في كل البلاد المسلمة آنذاك .

جنكيز خان يتطلع الآن لإقليمي خراسان وخوارزم، وهما أكبر وأهم أقاليم الدولة الخوارزمية، ولكي يشن التتار حربًا معنوية على أهالي تلك الأقاليم؛ أرسل فرقًا تتارية للمدن والقلاع المحيطة

لتستولي عليها وتقتل أهلها لكي تصل الرسالة أن التتار لا يرون إلا بالدماء وأن القادم أسوأ لكل المدن المجاورة.

وصل جنكيز خان إلى مدينة بلخ وأعطى أهلها الأمان، والأمان وفى هذه المرة كان أمانًا حقيقيًا؛ فلم يتعرض لهم، وتعجبت ما السبب في هذا الوفاء بالعهد؟، زال العجب عندما علمت أن جنكيز خان أخذ عهد من أهل بلخ على الوقوف معه ومساعدته في فتح مدينة مسلمة أخرى وهي مرو، أيعقل هذا؟! أين ذهبت النخوة وأين حُمرة الخجل، أين الشهامة والمروءة؟ أنتم لم تكتفوا بعدم مساعدة إخوانكم بل ساعدتم أعداءكم في ذلك، تملك الخوف والجبن من معظم مدن المسلمين، اختلفت جينات الرجال بمرور الوقت؛ فبعد أن كان هناك رجال مستعدون للتضحية بأنفسهم وكل شيء من أجل ما آمنوا به وصدّقوه وبايعوا على الموت مثلما فعل الأنصار مع الرسول صلى الله عليه وسلم، أصبح هناك رجال آخرون مستعدون للتضحية بإخوانهم من أجل الإبقاء على حياة حتى لو كانت ذليلة، ولكن هل كان لهم ما أرادوا...؟

ذهب الجيش التتري ليحاصر مدينة مرو ومعهم طبعًا أشباه الرجال من مدينة بلخ، وجد التتار مقاومة عنيفة مع جيش مرو ولكن انتصر الجيش التتري ودخل جنكيز خان مدينة مرو وكان بها سبعين ألف مدني بعد هزيمة الجيش، ودكَّ المدينة كلها بكل قاطنيها، ونهب كل كنوزها، قتل كل أهلها وأفناهم، سبعون ألف مسلمٍ قتلوا في يومٍ واحد، لم تشهد البشرية منذ خلق آدم ما وجدته أيام أولئك السفاحين القتلة.

ذهبوا إلى نيسابور وفعلوا بها كما فعلوا في مرو.

هرا في أفغانستان كان لها نفس المصير، وبذلك تم القضاء على إقليم خراسان بأكمله عام ٦١٧ هجريا.
يتبقى الآن إقليم خوارزم والذي تم حصاره، وبعد حرب شرسة اكتسح التتار الإقليم بأكمله؛ بل ولم يتركوا أهلها الذين اختبأوا في الأقبية والسراديب، ماذا فعلوا؟؟ هدموا سدًا كبيرًا كان مُقامًا عند نهر جيخون ليتأكدوا من مقتل كل أهلها، شهوة غريبة في القتل لم نعهدها عند أحد من قبل.
بدأ التتار يفكرون في اتجاه الجنوب الخوارزمي، حيث يسيطر **جلال الدين الخوارزمي** ابن محمد بن خوارزم والذي يتخذ من مدينة غزنة عاصمةً له لكي تكتمل له السيطرة على كافة الدولة الخوارزمية .
أعد جلال الدين العدة للقاء التتار واتخذ مساعدًا له هو **سيف الدين بهراق** أحد أمهر القادة الأتراك بما يمتلك من الجنود الأقوياء، دارت معارك شديدة بين جلال الدين والتتار، معارك عنيفة، ولأول مرة يتراجع التتار وينتصر جلال الدين، ولأول مرة يعرف التتار الهزيمة، ودوت الهزيمة في اسماع جنكيز خان في أفغانستان، فجهز جيشًا آخر التقى بجلال الدين في كابول المحاطة بالجبال، وكان قتالًا عنيفًا، وأيضًا انتصر المسلمون مرة أخرى، ولكن ما حدث في جيش جلال الدين كان غريبًا!
ولكن قبل أن نعرف ماذا حدث في أحوال الدول الإسلامية من ردود أفعال حول ما فعله التتار في تلك البلدان وما اقترفه في حق بلاد خوارزم، استقبل الأخبار شمس الدين بحزن بالغ وتحطم قلبه لما حدث لإخوانه فيما كانت ردة فعل عامر هادئةً نسبيًا، بل

وأبدى انبهاره من سيطرة التتار التامة على كل شيء، وأكمل نقصه بما فعله جنكيز خان من دهاء عسكري مما أغضب شمس الدين وأخذ يقول له:

- ألم يعتصر قلبك من أجل إخوتك؟

يرد عامر:

- هم يستحقون ما حدث لهم، لأن التتار دولة قوية وكان يجب على تلك الدول أن تكون مثلها وتأخذ بأسباب القوة من عتاد عسكري وتفوق مادي.

يرد شمس الدين:

- أتفق معك في بعض الأمور، ولكن تلك الدول فقدت أهم شيء وهو صدق الإيمان والتوكل على الله، والذي كان سيعطيهم قوة تجعل منهم ندًا قويًا للتتار.

بالطبع اعترض عامر على هذا الكلام وأكد أن هذه أسباب واهية لا تغنى ولا تسمن من جوع، عامر غير مؤمن بالمرة بأي أسباب قادمة من الله، فوق قدرات عقله المدد الإلهي الذي بدونه يكون الأخذ بالأسباب كسباح ماهر فقد قاربه في بحر مليء بالدوامات، بل وازداد الأمر غرابة عند عامر الذي رفض الاعتراف بهزيمة التتار أمام جلال الدين وأكد أن الأمر هو محض صدفة مؤقتة.

في أثناء احتدام النقاش والخلاف بين أبناء الخالة في بغداد، كان هناك خلاف آخر في بلاد خوارزم؛ حيث اختلف قادة جلال الدين على الغنائم التي استولوا عليها من التتار، بل وتعدى الأمر مرحلة الخلاف ووصل للسيوف، بل وقُتل أخو سيف الدين بهراق مما أغضبه غضبًا شديدًا جعله ينسحب برجاله الأتراك مما أدى

لانكسارٍ معنويٍّ كبير لجيش جلال الدين وجاء جنكيز خان لينتقم من جلال الدين مما دفع جلال الدين للانسحاب من مواجهة جنكيز خان حتى وصل لحدود نهر السند وبعد مواجهات عنيفة مع جيش التتار هرب لبلاد الهند .

-عاد جنكيز خان يصب نار غضبه على كل المدن التي تركها جلال الدين بدون حماية عسكرية مثل غزنة وكابول وبالتالي استحوذ على افغانستان كلها وهكذا حتى عام ٦١٧ هجريا أصبح التتار يمتلك (الصين - أذربيجان- تركمنستان- كازخستان اوزبكستان - ايران - أرمينيا - جورجيا).

أصبح المارد التتري الآن تقريبًا ملتهمًا كل المنطقة الشرقية وبلاد ما وراء النهر، وأصبحت الدولة التترية على مشارف الحدود الشرقية للدولة العباسية بالعراق.

عام ٦١٨ دخل التتار مدينة مراغة واستولوا عليها بنفس طريقة بلخ ومرو عن طريق إخوانهم المسلمين الذين أسروهم.

يُذكر في الأثر أثناء الاستيلاء على مراغة أن رجلًا من التتار دخل حي به أكثر من مئة رجل مسلم قتلهم على حدىً جميعهم، أيصدق هذا؟ لم يقف في وجهه أي رجل!

ما هذه الهزيمة النفسية والخوف التي عاشها المسلمين آنذاك!

رجل واحد يقتل مئة فرد وحده!

أيكون هؤلاء الرجل مثل البراء بن مالك الذي نزل وحده حديقة مسيلمة في حرب اليمامة وسط كل الأعداء لكي يفتح باب الحديقة لجيوش المسلمين التي دخلت من خلاله، كيف فكر هذا الرجل وهو ينزل بين الأعداء ليقاومهم كي يفتح لإخوانه!

هل هذا الرجل عقمت مراغة أن تأتى برجلٍ مثله يقاوم ذلك التتري الذي قتل مئة وحده؟

بعد عدة أعوام ظهر جلال الدين مرة أخرى لساحة الأحداث، وعند علمه بهدوء التتار نوعًا ما قرر الرجوع للهند والدول التي تركها التتار وكانت أجزاء من إيران تحت حكم غياث الدين بن محمد الخوارزمي شقيق جلال الدين، وسعد الدين بن تكلا الذي كان قسم البلد بينه وبين غياث الدين نصف شمالي ونصف جنوبي، ماذا فعل جلال الدين، وحاول أن تصدق أخي القارئ، فقد جاء يتحالف مع سعد الدين ضد أخيه غياث الدين ليأخذ ملكه!! أيعقل هذا؟!

بدأ جلال الدين يسترجع قوته وبدأ يفكر في غزو الخلافة العباسية وحاصر البصرة المسلمة، ثم حاصر بغداد فقام الخليفة الناصر بماذا!! استسلم؟ لا، بل فعل الذنب الذي لا يغتفر وهو الاستعانة بالتتار. صدق هذا! أصبح كالمستجير بالرمضاء من

النار... ولكن لم يرد عليه التتار، وترك جلال الدين بغداد وذهب يستولي على المدن الإسلامية الباقية في إيران وفعل بهم الأفاعيل - وهم إخوانه- من تنكيل وتعذيب واغتصاب.

ولنا هنا وقفة مع جلال الدين الذي ترك بلاده فارًّا وحيدًا لبلاد الهند وتمكن من إعادة وضعه وملكه، وهذه الظروف تتشابه تمامًا مع أحد الرجال الحقيقين الذين تندر بهم تلك الأيام وهو **عبد الرحمن الداخل (صقر قريش)** الذي فرَّ من بطش العباسيين وذهب وحيدًا من العراق ثم لمصر ثم ليبيا ثم إلى بلاد المغرب والكل يطارده، حتى هاجر لبلاد الأندلس وحيدًا، ولكنه قوّى وضعه وسرعان ما قوّى مُلكه.

كي يفعل مثل جلال الدين ويقتل إخوانه ويحاصرهم؟؟ لا والله؛ بل ذهب ليُقوِّي جبهة المسلمين في الأندلس ويتناسى كل خلافاته مع إخوانه ويبنى ملك ومجدًا للأمويين في بلاد الاسبان، شتان بين هذا الرجل وجلال الدين الذي لم يتعظ من درس أبية بل قام بالرجوع ليس من أجل حرب التتار ونصرة أهله بل كي يحارب إخوانه ويبنى ملكا زائفا على أجسادهم.

حدثت تغيرات في القيادة في المغول وتوفى السفاح جنكيز خان عام٦٢٤

٦٢٨هجريا خاقان جديد للتتار أوكتاي وتوالت السنين والحكام في الجبهة التتارية وهي مكتفية بما التهمته من بلاد في الشرق الإسلامي مع وجود جيوش أخرى تحارب شمالًا في أوروبا.

ولكنه قبل ذلك قرر التتار على جلال الدين ليؤول لهم إيران بأكملها وبالفعل هزم جلال الدين وفر إلى شمال العراق وانفصل

عنه جيشه ورجع وحيدًا مثل أبية حتى قتل على يد أحد الفلاحين الأكراد شمال العراق والذي كان قتل أخوه على يد رجال جلال الدين إبان حصاره للبصرة وشمال العراق، وهكذا قتل جلال الدين وبالتالي سقطت كل فارس في يد التتار .

وأصبح ما يفصل التتار عن العراق شريط صغير تحتله الطائفة الإسماعيلية الشيعية.

وهكذا مر الفصل الأول بكافة أحداثه بداية من قيام التتار إلى التهامهم كل الشرق الإسلامي، ووقوفهم على حدود الخلافة الإسلامية وتركهم العالم الإسلامي موقتًا بداية من ٦٣٤ هجريا ليذهبوا إلى أماكن أخرى وهنا كانت متغيرات تلوح في الأفق بين أولاد الخالة فالأحداث كثيرة والكلام سيكون أكثر فيا ترى ماذا رأى شمس الدين في تلك الأحداث بداية من هروب وعودة جلال الدين حيث كالعادة سيختلف معه عامر فهما بالفعل في طريقين متوازيين صعب الالتقاء بينهما.

***

الفصل الثاني:

مما لاشك فيه أن تلك الاجتياحات التتارية لكل الشرق الإسلامي كان غريبًا ومدهشًا، بل كان أمرا جديدًا عسكريًا، فكيف لدولة ما زالت تحت النشأة أن تكون كل تلك الجيش وتكسب كل هذه الأراضي في تلك الفترات الوجيزة، اختلف عموم المسلمين كعادتهم في التعليق على الأحداث وبالطبع اختلف شمس وعامر، شمس يكره التتار ويعرف توصيفهم كعدو ظاهر للأمة في حين عامر يعتبر نفسه رجل سابق عصرة منبهر بكل جديد وحديث، معجب بقوة وتنظيم التتار ونجاحهم الساحق في فترة وجيزة حتى لو كانت مملكتهم شيدت على حساب كثير من الجماجم البشرية وخاصة المسلمين، ولكنه لا يعتني بذلك ولا يدير له بالا، بدأت التجارة تكبر والمحل تجارته تزيد وكما نعرف النفس البشرية تميل للطمع ووجد عامر نفسه جدير بالمحل وحدة وأخذ يحاول إقناع شمس الدين بفض الشراكة بينهما وأن أسلوب إدارة للدكان قديمة وغير مفيدة وكالعادة كان خلافًا حادًا وسط فيه كثير من الأهل والجيران الذين لم يروا في شمس الدين إلا تاجر مخلص ورع، وحكموا بينهما أن الذي يريد فض الشراكة عليه أخذ نصيبه وأن يغادر هو وبالطبع أذعن عامر لرأي الأغلبية وهو يتمنى أن يترك المحل شريكه وابن خالة شمس الدين ولكنه رضخ وأجل الموضوع لفترة.

كانت الأحداث العالمية أو الإقليمية هادئة إلى نوع ما في الدولة الإسلامية ولتغير القيادات التتارية وسعى التتار لغزو أوروبا، كان العالم الإسلامي يعيش فترة مستقرة نوع ما من ٦٣٩ هجريا إلى ٦٤٩ بل إن شئت فقل أن التتار لم يصبحوا في الحسبان أو على البال، حتى في معظم كتب التاريخ تلك الفترة تناست تقريبًا ذلك المارد المخيف القابع على حدود الخلافة الشرقية وكان ذكرة قد نسى تمامًا، تجد الكتب كلها تتكلم في تلك الفترة على حياة عادية (قام الخليفة بافتتاح المستشفى الفُلاني- حدوث وباء ما والسيطرة عليه - إنشاء مدارس جديدة أو محال تجارية-)

هدنة تتارية فرضتها نتيجة تغيير قادتها من (أوكتاي لكيوك) والذي كان نهجهم تأمين الأراضي التي استولوا عليها وعدم التوسع ولكن في ظل تلك الهدنة كان حال المسلمين كما ذكرنا في سُبات عميق لدرجة أن المؤرخين لم يذكروا التتار في تلك الفترة، بدلًا من أن يستعدوا ويستغلوا تلك الفترة لتأمين حدودهم التي يقبع فيها ذلك الذئب، مارسوا حياتهم الطبيعية ونسوا كل شيء، ذلك الطرف الأول عاش تقريبًا تلك الفترة وكأن شيئًا لم يكن أما الطرف الثاني الذي فرض تلك الهدنة وهو التتار بدأ ينظم صفوفه وخصوصًا بعد قدوم مينكو خان خاقان جديدا للتتار وأخذ يعتمد على أهم قادته وهم إخوته.

- اريك بوكا لمساعدته في إدارة شئون البلاد .
- كوبيلاي تكلف بقيادة المنطقة الشرقية للدولة التتارية (الصين وما حولها).

-الاخ الثالث وهو بيت القصيد، ومعروف جدًا بدمويته وتعطشه للدماء وهو **"هولاكو"** الذي سيكمل معنا تقريبًا لنهاية القصة، كان في مواجهة الخلافة العباسية .

على صعيد الخلافة الإسلامية أيضًا تغيرت القيادة من المستنصر بالله لولده المستعصم بالله الذي كان مهتمًا بالعلوم الشرعية، قراءة القرءان، الفقه، ولكن هل تكفي العلوم الشرعية فقط للأمة كي تنتصر على أعدائها؟ بالطبع لا، الأمة تحتاج إلى جانب العلم والتفقه؛ القوة والعدة، فالنوايا الطيبة لا تكفي وحدها لدخول الجنة بل يجب العدة والاستعداد ولك أن ترى معي تلك العدة والاستعداد ولكن هل هي من جانب المسلمين في بغداد؟ لا والله بل للأسف كانت من الجانب الآخر؛ حيث بدأ هولاكو الذي كُلِّف

بقيادة الجبهة الشرقية لحدود الدولة الإسلامية بالتخطيط للغزو التتري لبغداد منذ استلامه القيادة عام ٦٤٩ هجريا، هل تسرع هولاكو وأخذ مباشرة يغزو المسلمين وهم في ذلك السُبات العميق؟ لا بل أخذ يعد العدة ويخطط ويأخذ بأسباب النصر ويعمل ألف حساب للخلافة العتيقة التي كان مجرد اسمها يرهب أي أحد، وللأمانة كان تخطيط هولاكو لاجتياح بغداد أكثر من رائع، ودعونا نرى ماذا فعل ذلك القائد الجديد الذي ابتُليت به الأمة بسبب بعدها عن ربها.

بدأ في أربعة محاور رئيسية:

* الاهتمام بتجهيز مكان الحرب وذلك للتيسير على جيشه من أين؟

تخيل من الصين لبغداد مسافة لو قطعتها أنت الآن بالطيران لأخذت وقتًا طويلًا، علاوةً على راحة إجبارية للطائرة للتزود بالوقود، أخذها هو ليُهيئها بريا رغم كل المعوقات الطبيعية.

* إقامة الجسور في كافة المناطق على جميع المسطحات المائية ووضع جنوده للسيطرة على تلك المناطق كافة.

* ناقلات عملاقة لنقل معدات الحصار من الصين إلى بغداد، متخيل؟

* إخلاء الطرق من الصين لبغداد لترك الحشائش والأعشاب للخيول التتارية حتى لا يحتاج لإطعام الخيول أثناء الطريق، سيطر على كافة الطرق وجعلها مراعى لخيوله من الصين لبغداد.

هذا هو المحور الأول وهو تجهيز ميدان المعركة وفى أثناء قيامة بالمحور الأول كان على قدم وساق يعمل على المحور الثاني وهو

الإعداد السياسي وكسب التحالفات الدولية للمعركة، - لك الله يا بغداد وكأنك موعودة بتلك التحالفات فقد فعلها جورج بوش الابن في ٢٠٠٤ عندما بدأ يجهز لحرب العراق وقاد تحالف دولي لذلك، ويبدو أن كل المستعمرين لهم نفس السلوك- قاد هولاكو تحالفًا دوليًا ضد بغداد على عكس سياسة القطب الواحد التتري التي كان ينتهجها جنكيز خان، ولكن الوضع تغير، حيث عرف التتار لعبة السياسة الحقيرة وأنه لابد من التنازل عن مسمى القطب الواحد من أجل التيسير لدخول بلاد بدون حرب أصلا وإليكم بعض من تلك التحالفات:

- تحالف مع ملك أرمينيا .
- تحالف مع أمير أنطاكية.
- الوصول لماكيكا بطرايارك بغداد والتحالف معه
- مملكة الكورج (جورجيا)

ذلك الجزء الطبيعي من التحالفات، فليس غريب أن تتحالف ممالك الكورج وأنطاكية وأرمينيا التي كان لها حروب عدة مع المسلمين، ليس غريبًا أن تتحالف مع التتار ضد المسلمين، بينما الغريب والمدهش؛ بل المحزن؛ ذلك الجزء الآخر من المعاهدات، حيث كانت مع قادة في العالم الإسلامي!! تخيل يتحالف أمراء مسلمين من أجل القضاء على إخوانهم المسلمين في بغداد!

من هم هؤلاء الحلفاء؟

سنحاول معرفتهم حتى يعرفهم التاريخ:

- بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل ليصبح شمال العراق والاكراد في يد هولاكو.
- أمراء السلاجقة كيكاوس الثاني وقلج أرسلان الرابع لتكون الأناضول وتركيا بكامل أراضيها تحت أمرة هولاكو عند دخول العراق، هل لو كان هولاكو جاء منذ أكثر من قرنين كان سيجد الوضع في الأناضول مثلما وجد مع هؤلاء الخونة؟ بالطبع لا فقد تولى الب أرسلان حكم السلاجقة الأتراك عام ٤٥٥ هجريا كانت معاركه وفتوحاته تذاع في كافة الأقطار فقد حارب الرومان وأوقف زحفهم في معركة ملاذكرد واستطاع تأديب الدولة العبيدية أيضًا، فقد استطاع أن يصل لمملكة من بلاد ما وراء النهر حتى أقاصي الشام، رجل بمعنى الكلمة ليس فأرًا مثل هذا القلج الذي ذهب والخوف يملأ قلبه من أجل الوقوف مع هولاكو ضد إخوانه المسلمين، بئس الرجال والله، وما أغرب السنين والايام فهل مائتا سنة كفيلة بتغيير الطبائع البشرية هكذا؟ هل هذه مدة كافية ليتحول حكام السلاجقة من أسود تزأر في الميادين لمجرد نعاج تخشى من الصيادين؟
- الناصر يوسف أمير حلب ودمشق وهو الحفيد لمن!! تخيل للقائد الشجاع صلاح الدين رحمه الله، حيث أرسل ابنه بفرقة تتارية لمساعدة هولاكو في غزو بغداد .
- الأشرف الأيوبي أمير حمص.

إذا ذكرنا فقط أن الناصر يوسف من نسل البطل صلاح الدين لعرفنا ما معنى اختلاف الرجال، هذا إذا وضعنا في الاعتبار أن الناصر يوسف يحسب على طائفة الرجال فأين الخلف من

السلف، صلاح الدين رفض حتى مجرد الضحك والمسجد الأقصى أسير، صلاح الدين لم ينم له جفن وأراضي المسلمين في يد الصليبيين، صلاح الدين أجبر كل ملوك أوروبا على احترامه بل وطلب إبرام المعاهدات له لسبب بسيط أنهم وجدوا أمامهم رجل صلب، عصى الكسر، غير لين، عنده قسط وافر من الكرامة والرجولة وهي الصفات التي لم يجدها هولاكو في أحفاده فعمل معهم معاهدات ايضا ولكنها من نوع آخر ومن طراز مختلف فإن شئت قل املاءات، شروط، أوامر من سلطان لأتباعه، العدو واحد فلا فرق بين الصليبين والتتار فكلاهما كتم على نفس الأمة وهبط عليها لنهب مقدراتها إنما الفرق في الخصوم، فقد وجد الصليبيون لسوء حظهم رجالًا مثل صلاح الدين ونور الدين محمود بينما سعد هولاكو أنه تقابل مع أقزام مثل الناصر يوسف والأشرف الأيوبي.

أثرت تلك التحالفات بالذات بشكل كبير على سقوط بغداد من شقين، الشق الأول وهو تأثيرها السلبي على هبوط معنويات الأمة حيث وجدوا أمراءهم يتحالفوا مع ذلك العدو القاتل، الشق الثاني كانت بالفعل عامل مساهم في خنق بغداد وتضييق أي مخرج لها .

هل اكتفى التتار بتلك التحالفات...؟ لا بالطبع فاستطاع التتار الوصول لأعلى رتبة في بغداد بعد الخليفة المستعصم وهو كبير الوزراء مؤيد الدين بن العلقمي، كان من الطائفة الشيعية قد عين من اربعة عشر عاما من ٦٤٢ هجريا حتى ٦٥٦ هجريا، كل أسرار الخلافة معه، معظم القرارات المصيرية من عنده، كل ما يخص

الجيش يتبعه، كان مسؤولًا تقريبًا عن كل شيء في ظل انشغال الخليفة باللعب مع الجواري، تمكن هولاكو من الوصول لقلب البلاط العباسي ومراسلة مؤيد الدين وإغراءه بالمزيد من الامتيازات حال تسهيل وصول التتار لبغداد.

استمرت الجهود الدبلوماسية لغزو بغداد كجزء من الاستعداد للخطة لمدة خمس سنوات كاملة سواء باستعداد تتري في الطرق وتمهيدها والأسلحة واستدعاء فرق إضافية من الجنود أو في ى الجانب الدبلوماسي كما ذكرنا من تحالفات مع أمراء الصليبيين والمسلمين على حد سواء، أو من اختراقات أمنية داخل البلاط العباسي بالوصول لوزير المستعصم شخصيا وأيضًا بطريارك بغداد، أكمل هولاكو استعداده بنوع آخر من التمهيد النفسي والضغط على الشعب العراقي من خلال شن غارات تتارية على القرى المجاورة لبغداد لبث الرعب والخوف على أهل بغداد وتذكيرهم بمذابح جنكيز خان التي مضت عليها عشر سنوات، ايضا الهجوم على القوافل التجارية القادمة لبغداد مما يزعجها ويرهقها اقتصاديا.

الاستعداد الإعلامي: تواصل التتار مع كثير من الأدباء العرب لنشر صورة مخيفة للجيش التتري باعتباره قوة لا تقهر فهناك أديب يقول إن التتار يعلم كل ما يجري في بغداد ولا أحد يعلم ما يجري في بلاد التتار.

استكملت كل محاور الاستعداد وكل الأسباب لكي يبدأ هولاكو رحلته الكبرى لأرض الخلافة العباسية .

بعد خمس سنوات من الاستعداد وبالتحديد عام ٦٥٤ هجريا بدأ هولاكو فعليا في تحضير جيش غزو بغداد وكان جيش جرار قوامة قرب ال ٢٠٠ ألف جندي وبدا استعداد كل الجنود حيث استطاع هولاكو تكوين جيش متناغم يستند إليه في غزوة الخلافة الاعرق في التاريخ، وكان قوام هذا الجيش:

-فرقة من جيش التتار المرابض في روسيا بقيادة باتو .

-فرقة من الجيش الذي فتح أوروبا بقيادة القائد بيجو .

-فرقة مساعدة من أرمينيا .

-فرقة من الكورج .

-استدعاء ألف من الرماة الصينين المهرة المشهورين بإلقاء الكرات النارية .

-استدعاء كاتوبغا القائد التتري الكبير ووضع تحت قيادة فرقة أخرى .

-فرقة اسلامية بقيادة ابن الناصر الأيوبي حاكم الشام الذي ذكرنا من قبل حيث لم يكتفى ذلك الخائن بالتحالف مع هولاكو بل أرسل له ابنة العزيز بفرقة لتقاتل إخوانها في بغداد .

-فرقة إسلامية أخرى من بدر الدين لؤلؤ الخائن.

اكتمل الجيش وبدأ الزحف ولكن ظهرت له مشكلة على الشريط من فارس للعراق وهي الطائفة الإسماعيلية الشيعية، رغم اختلافها مع الخلافة العباسية لم يطمئن هولاكو لترك ظهره بدون تأمين ودارات حروب شرسة عام ٦٥٥ هجريا ليقضى تمامًا على الطائفة الإسماعيلية ويصبح الطريق أمام العراق مفروشا بالورود .

اجتمع هولاكو مع مستشاريه ووضع خطة الحرب في همدان وكان في خطته وضع مراقبة شديدة للفرق الإسلامية داخل الجيش التتري حيث كان يخشى من العزيز أو بدر الدين لؤلؤ من الغدر ولكن هذا والله يعتبر خطأ استراتيجي كبير لهولاكو أن يضيع من وقته وجنده لمراقبة فرقة هي اعلنت ولاءها منذ البداية لأعدائها واعلنت حربها على إخوانها، ان شكل هولاكو وخوفه سيكون في محلة إذا كان قد وجد رجالا مثل محمد بن مسلمة الذي بالفعل ذهب وغدر بكعب بن الأشرف لهجائه الرسول يوميا وتقليب المشركين على المسلمين وخيانة العهد فكان غدر محمد بن مسلمة والله من أشرف أعمال الرجال الذي ذهب بنفسه للقضاء على ذلك المشرك الذي طالما آذى النبي، ولكن هيهات هيهات فأين هذا الفأر الملقب بالعزيز من ذلك النمر بن مسلمة، إن هولاكو كان معه كل الحق إذا وجد رجلا مثل مسلمة كان فعلا يستدعي القلق والحيطة بينما كان معه ذكرا مسمى بالعزيز بن الناصر كان مخلص له أشد الإخلاص ولم يفكر لحظة في خيانته.
المسافة من همدان لبغداد ٤٥٠ كيلو، سيبدأ هولاكو بتقسيم الجيش لثلاث فرق أولها القلب يقوده هولاكو بنفسه وتلحق به الفرق المساعدة من روسيا ومن يأتي من أرمينيا والكورج والطريق ممهد الآن بعد القضاء على الإسماعيلية حيث سيكون مهمة تلك الفرقة حصار بغداد من الشرق.
الجناح الايسر بقيادة كاتوبغا ولكن جنوبًا وتم فصل الفريقين خوفًا من عيون الدولة العباسية!!
سيكون هذا الفريق مكلف بقيادة بغداد من الجنوب .

الجزء الثالث القادم من أوروبا مرورا بتركيا بقيادة بيجو سيأتي لبغداد من الشمال والغرب، قدر وصول ذلك الجيش من شمال العراق لبغداد عليه اختراق ٥٠٠ كم ف تركيا ثم ٥٠٠ كم في العراق

حوالي ألف كم في أراضي اسلامية كي يصل بغداد دون ان تشعر الخلافة العباسية بأي شيء وهذا يشير لشيئين هامين

اولا: غياب العيون للدولة العباسية تمامًا حتى يأتي جيش كامل يقطع حوالي ألف كم داخل أراضي مسلمة دون أن تشعر الدولة المركزية أنها فضيحة عسكرية بكل ما تحمله الكلمة من معنى .

- ثانيا: الخيانة من أمراء الأناضول والموصل الذين فتحوا كل الحدود لجيش بيجو بل أيضًا زاد بدر الدين لؤلؤ من الشعر بيتًا حيث زود الطريق بالقنوات والجسور للتيسير على الجيش التتري الوصول لبغداد من الشمال، والله لولا أن الكلام موثق لظننت في القصة كلها، هل يصدق أن تصل الخيانة لمثل هذا الحد، إذا كان هذا اللؤلؤ معاديا للخلافة مثل الخوارزميين كان الأمر سيكون منتقدا أيضًا ولكن سنقول انه عنده عصبية قبلية وهكذا، الغريب في الأمر أن بدر الدين كان حاكما للموصل عراقي أصلا، والاغرب والأدهش انه كان عمرة...!! من ثمانين وبعض الروايات قالت مئة عام والله كاد عقلي أن يطيش، شيخ عجوزًا تجاوز الثمانون بينه وبين الموت خطوات يفكر في الدنيا والخيانة بهذا الأسلوب، ما الذي يريده ذلك الخرف حتى يتسبب في تلك الخيانة الكارثية، وهل كبر العمر اثر على تفكيره وسلوكه ولكن كان هناك شيخا آخر تجاوز السبعين في بلاد المغرب استطاع ان يفتح الأندلس ويبنى

بذرة لمن بعدة وهو موسى بن نصير، القائد الشجاع، أيساوي ذلك اللؤلؤ شعرة في فرس بن نصير؟ هل يُعقل أن يكون هذا رجل وذاك مثله، والله لن تكون، الغريب أن بعد تلك الخيانة المخزية بشهور مات بدر الدين لؤلؤ، أراد الله ان يقبض عمرة وهو على تلك الفضيحة التي لن ينساها التاريخ له، مات وهو مسؤول عن دخول التتار من ناحيته لبغداد بل ساعد اعداء الله والوطن للوصول لإخوانه.

ولكن ما هو الوضع داخل أرض الخلافة :

-الخليفة كما ذكرنا هو المستعصم كان انسان حسن الصورة، حسن الاخلاق، مكرم للعلماء، وقل ما شئت ولكن كيف يكون الخليفة رجل بكل تلك المواصفات ولكنه ليس محنك عسكريا أو سياسيا ترك البلاد في يد وزير خائن وتفرغ للجواري، انتشرت السرقة والفساد،

كان الخليفة رجلا حسن الخلق، قارئ للقرآن، حسن الخلق والطيبة ومكارم الأخلاق هي صفات حسنة ولكنها لا تكفي لقيادة أمة تلتف حولها الذئاب من كل جانب، سيدنا عمر كان حسن الخلق ولكنه كان صارمًا حادًا في الحق، وأبا بكر كان حليما لينا لكن عندما وجد القبائل ترتد بعد موت المصطفى سير لهم الجيوش لتأدبهم كي يردع تلك الفتنة، ان الحاكم الضعيف حتى لو كان حسن الخلق هو وبال على الأمة.

-الحكومة والوزراء لم تكن أحسن حالًا من الخليفة بل كانت على الأسوأ من الاهتمام بجمع الأموال وفرض الضرائب والتنافس فيما بينها لتزويد الأملاك والأراضي، بل كانت المهزلة كلها في قيادة تلك

الحكومة حيث كلن وزير البلاط وكاتم الأسرار هو ابن العلقمي الشيعي الذي كان يكن العداء للخلافة العباسية بل وكان يتمنى زوالها، هل كان ذلك العلقمي في الحكم سنة أو اثنين لا بل كان على رأس الحكومة مدة لا تقل عن أربعة عشر عامًا تغلغل في كل شيء وكانت معه مفاتيح كل الأبواب بل واقنع الخليفة من أجل ترشيد النفقات باختزال عدد أفراد الجيش الذي وصل عند قدوم هولاكو لأقل من خمسة عشر ألف، تخيل..! جيش الخلافة العباسي، مهزلة بكل ما تحمل الكلمة من معنى ولنا هنا وقفة فالرجال الحقيقيون من الممكن لهم أن يكون سببًا في نصر بلادهم أما أشباه الرجال فهم نقمة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، ففي خلافة الصديق كان أبو عبيدة قائد الجبهة المتاخمة للروم ولكن رغم ورعة وزهدة عزلة الصديق ووضع مكانة خالد بن الوليد الأقل زهد والادنى ورع، ولكن التخصص ووضع الناس في أماكنها كان عاملا لنجاح خلافة الصديق، بينما الثقة في غير مكانها كانت إيذانًا لضياع الخلافة على يد المستعصم الذي وثق في وزير خائن سلم بلاده على طبق من فضة للتتار .

-الشعب كان هو الأخر في لهو وترف، في غياب عن الأوضاع الخارجية وما يحدث من التتار في سائر البلدان، بل انتشرت الموبِقات من سرقة وزنى وانتشر شرب الخمر وبالفعل ما انتشرت الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء .

وبالفعل في محرم عام ٦٥٦ أصبح البلاء جاهز لحدود بغداد، لأول مرة ظهرت قوات هولاكو على مشارف الأسوار الشرقية للعاصمة العتيقة وجهز معدات الحصار ونصب المجانيق، وفى وقت متوافق فوجئ أهل بغداد بالجنوب يحاصر من خلال جيش آخر وهو كاتوبغا ليكون المنفذ الوحيد لأهل العراق الغرب والشمال .

اهتزت أرض الخلافة من الرعب ووقع قلب الخليفة بين ضلوعه، قد جاء اليوم الذي لم يكن يعمل له أي حساب، اجتمع بمستشاريه وعلى رأسهم بالطبع ابن العلقمي الذي أشار عليهم بمهادنة التتار، وكان رأى الاستسلام غالبًا عند كثير من المستشارين، أما جانب آخر فقد رأى بضرورة النضال ومحاربة التتار والدفاع عن الارض والعرض وكان على رأس تلك الجبهة مجاهد الدين وسليمان شاة .

انتشر الخلاف حتى بين أطياف الشعب وبما أننا في بغداد فلنذهب لنرى ما آلت إليه الأوضاع بين شمس الدين وعامر فالتجارة تأثرت بشكل كبير خصوصًا آخر سنتين بسبب سيطرة هولاكو على القوافل القادمة لبغداد مما أضر الوضع للرجلين ولكن كالعادة اختلف الرجلان، فهما في طريقين متوازيين يستحيل بينهما الالتقاء.

رأى شمس الدين بالتطوع والمساهمة بالمال من أجل مساعدة الجيش للحفاظ على البلد، في حين دب الرعب في أوصال عامر الذي رفض تمامًا وأكد له ضرورة مغادرة البلاد وبيع تجارتهما والسفر لحلب، لأن عمه كان له تجارة هناك الأمر الذي أغضب شمس الدين كثيرًا حيث رأى فيه تخاذل وجبن وتولى عن مساعدة أهله، ولكن عامر كان مبيت النية للهروب ولأول مرة تنفض التجارة بينهما وأخذ عامر نصيبًا كبير واتجه مباشرة للقوافل المتجه خارج بغداد حيث خرج من الشمال سريعًا مع بعض المتخاذلين أمثاله، في حين أخذ شمس الدين نصيبه الأقل وقدمه لديوان الجيش عند سليمان شاة.

خرج مجاهد الدين أيبك وسليمان شاة ومعهم جيش الخلافة العباسي الهزيل جدًا وبعض المتطوعين أمثال شمس الدين ولكن بمجرد أن اقترب من أسوار بغداد الشرقية تواترت أخبار عن قدوم جيش ثالث تتري لحصار بغداد شمالا وغربًا بقيادة بيجو الذي جاء في موعدة بدون عناء والفضل يرجع للشيخ الهرم بدر الدين لؤلؤ كما ذكرنا .

انتاب مجاهد الدين حيرة بالغة ولكنه فضل الرجوع لملاقاة جيش بيجو حتى يظل الجانب الشمالي متاح كمنفذ لبغداد .
الغريب أن في خروج جيش مجاهد الدين وسليمان شاة كان هناك خروج على الجانب الأخر وفى نفس الجهة تقريبًا ولكن هو خروج المتخاذلين ومنهم عامر بالطبع، عسكروا في مناطق قريبة ومعهم دوابهم وعتادهم ولكن اختلف القصد والاتجاه فهناك رجال خرجوا على ضعف إمكانياتهم يدافعوا عن بلدهم وأرضهم وهناك آخرون أخذوا اموالهم وفروا من أجل الحفاظ على حياتهم .
استدرج جيش بيجو لجيش الخلافة ناحية الشمال حتى أطبق عليهم في منطقة الأنبار واستطاع بيجو هزيمة مجاهد الدين بل والقضاء على معظم جيشه حيث تبقت فئة قليلة عادت بأعجوبة مع مجاهد الدين إلى بغداد، بينما جرح شمس الدين جرحًا كبيرًا، فقد الوعي على إثره في منطقة الأنبار، وكانت جروحه كبيرة، بينما كان اقترب في رحلة الهروب للشام عامر الذي كان سعيدًا جدًا في الحفاظ على حياته وأمواله.
بالطبع لم يُضع **بيجو** الفرصة وأطبق الحصار من ناحية الشمال والغرب على بغداد لتصبح دولة الخلافة الآن محاصرة تمامًا.
-الشرق من هولاكو.
-جنوبًا من كاتوبغا .
-شمالا وغربًا من بيجو.
اجتمع الخليفة مرة أخرى بمستشاريه وفى هذه المرة بدأ ينصت لكلام مؤيد الدين بن العلقمي، وبالفعل أرسل وفدًا للتفاوض مع هولاكو مكون من من..! مؤيد الدين بن العلقمي، وماكيكا بطريرك

بغداد الذي كان يتواصل سرا مع هولاكو هو الآخر، ولا تعليق هل هذان الرسولان، اتفقا على بعض الشروط، بالطبع شروط فمعروف أن من يكون منتصرًا عليه املاء شروط وأوامر، وبعد أن سمعا من هولاكو كانت المعاهدة (الشروط) تقضى بوعود والزامات الوعود :

-سلام شامل مع دولة التتار، هولاكو لم يأتي من أجل الحرب والقتل وانما من أجل نشر التسامح !

- الإبقاء على الخليفة في الحكم.

- زواج ابن الخليفة من بنت هولاكو.

بينما كانت الالتزامات:

- تسليم كل رؤوس المقاومة بما فيهم سليمان شاة ومجاهد الدين آيبك.

- تسليم كل الأسلحة وردم الخنادق وتسليم الحصون.

- حكم الخليفة سيكون تحت مراقبة تتارية، سيرحل التتار بعد مراقبة الأوضاع.

أقنع مؤيد الدين الخليفة أن تلك بنود ممتازة وعليه ان يلتزم بها، لكن عقل الخليفة لم يكن مطمئن لأنه يعلم غدر التتار وأخذ يفكر ويأخذ وقته.

هولاكو كان يريد ردًا سريعًا، فهو في محرم ٦٥٦ هجريا الموافق يناير ١٢٥٨ ميلاديا وفي هذا التوقيت فصل الشتاء على أشده والبرودة الشديدة وهذا الحصار بمعداته وأسلحته يكلف التتار آلاف الدنانير يوميًا، بدأ صبر هولاكو في النفاد، وبدأ في قذف بغداد بالكور النارية.

(إذا أراد الله إنفاذ قضاءه وقدره أذهب مِن ذوي العقول عقولهم)

تبدو كلمات لعالم من بغداد أو فقيه كبير لكن ليس هذا إنها كلمات كتبت مِن مَن! التتار عندما بدأ الجيش التتري في قذف أسوار العاصمة بالسهام والكور النارية بدأت تلك السهام القرب من القصر بل ووصل أحد الأسهم في قلب إحدى الجواري وهي ترقص بين يدي الخليفة...! تخيل أرسل الله له كلمات تعبر عمّا آلت الاوضاع إليه مع من، ليس علماؤه أو حكماؤه بل مع أعدائه، الخليفة يتمتع بالرقص والغناء والمدفعية المغولية تقصف ارض الخلافة، الخليفة لا ينتبه للموت الذي أصبح على بعد خطوات منه ولكنه غارق في الرقص مع الجواري، الخليفة امتلأ دمه بالترف وحب الجواري وذهب منه حمرة الخجل، والله لقد جاء في خاطري موقف للبطل صلاح الدين الذي ذكرنا قبل ذلك أنه رفض الضحك مطلقا وقال (أضحك والاقصى أسير؟) رفض مجرد الضحك وهو نشأ والأقصى بين الصليبيين لم يأخذوه منه، بينما ذلك المستعصم ستذهب منه كل شيء والموت يحاصر قصرة الذي يبيت فيه وهو الرجل الموكل بالدفاع وحماية البلاد بينما هو غارق في ملذاته ومتعة أيجري في عروقه ما كان يجري في عروق صلاح الدين؟

أشك، تأثر الخليفة مما حدث وبالطبع كيلا يذهب تفكيرك بعيدًا كان التأثر على موت الجارية ولذا أمر الخليفة بزيادة الإجراءات الوقائية وحجب الرؤية عن التتار بزيادة الستائر حول القصر!

بعد أربعة أيام من القصف بدأت أسوار بغداد الشرقية تقع ومعها وقع قلب الخليفة وانهار تمامًا، أشار إليه العلقمي بضرورة الخروج

لهولاكو بنفسه وبالفعل رتب مع هولاكو الذي أمر بمجيء الخليفة ومعه خاصته وكافة الوزراء والسادة والعلماء والفقهاء ورجال الدولة وكان عددهم قرب السبعمائة، وبدأ الوفد للمثول أمام الزعيم هولاكو، نعم لغة القوة هي من تتحدث الآن، أمر الحرس التتري بدخول الخليفة ومعه سبعة عشر رجلًا فقط وعزل باقي الوفد للتفتيش الدقيق، وأخذ بالفعل باقي الوفد ولكن لم يفتشوا بل تم قتلهم، نعم قتلوا؛ أكثر من ستمائة وخمسين رجلًا من نخبة بغداد، علماء، فقهاء، أمراء، وزراء.

وأخذ الخليفة في الأسر وتم دخول الجنود بغداد وأبقى على الخليفة ليدل على أماكن كنوز العباسيين، بل أخذوها وقتلوا ولديه أمام عينيه وأسروا أخواته وتم تتبع عدد كبير من علماء السنة كان العلقمي قد أعطى قائمة بأسمائهم لهولاكو وأخذوا لمكان خارج بغداد وتم قتلهم جميعا بأسرهم، مأساة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، ذبح مجاهد الدين وسليمان شاة، قتل الخطباء والعلماء وحفظة القرآن، قتل أستاذ دار الخلافة وأولاده، وقتل معلم المستعصم.

كل هذا والخليفة مازال على قيد الحياة، سلمت الحصون والقت الأسلحة ودخل التتار كل شوارع بغداد وهنا أصدر السفاح هولاكو أوامر باستباحة بغداد والاستباحة هي ان يفعل الجنود كل ما يحلو لهم من قتل، سرقة، حرق، اغتصاب، تنكيل... أي شيء على هواهم بدون رقيب أو رادع، أصبحت أرض الخلافة لقمةً سائغةً في يد هؤلاء الهمج يفعلوا فيها كل شيء، أين خالد بن الوليد، المثنى بن شعبة، القيعقاع، سعد بن أبي وقاص، أين ذهب هؤلاء

الرجال وأيّ ذنب اقترفت الأمة ليستبدل أولئك الرجال بذكور من عينة المستعصم وابن العلقمي وبدر الدين لؤلؤ، بغداد التي أخرجت الجيوش لفتح البلاد وأخرجت العلماء لتعليم العباد، عقمت فيها النساء ان تنجب رجالا فابتليت بأشباه رجال أُبيدت على ايديهم العاصمة العتيقة، بلد الإمام الشافعي وابى حنيفة، بلد هارون الرشيد وابن حنبل .

استبيح القتل حتى أن الرجال يختبئوا في المنازل فيصعد ورائهم التتري ليقتله في كل مكان، يصعد لسطح منزله فيصعد خلفة ليقتله، قتلوا النساء والأطفال، لم يسلم منهم أحد، كل هذا والخليفة مازال على قيد الحياة، ماذا كان سيحدث لو كان ذلك المستعصم تخيل فقط هذه الاحداث منذ سنة بدلا من اللعب مع الجواري، أو الانشغال بالترف واللهو، كان سيكون مصير دولته ومصيرة مختلف حيث وضعه التتار في شوال وتم رفسة بالأقدام حتى الموت وذلك بعد عاشر يوم من فتح بغداد .

استمر القتل في بغداد لمدة اربعين يوما متواصل ليصل العدد إلى...؟ تخيل وصل لمليون مسلم تم قتلهم على يد تلك السفاحين القتلة .

- دلالة على أن التتار همج بالفعل هو ما فعلوه في مكتبة بغداد (أعظم مكتبة على وجه الارض) جمع فيها كل أنواع العلوم الشرعية والدنيوية، تراجم، طب، فلك، كيمياء، غير كتب التفسير والعلوم الفقهية القوا كل هذه الكتب في نهر دجلة، بدلا من أن يأخذوها وعاصمة المغول ليترجموها ويستفيدوا بها، ولكنهم همج بكل ما تحمل الكلمة من معنى، هي جريمة انسانية لا تخص

المسلمين فقط بل تخص العالم كله، دمروا كل شيء، نهبوا كل الكنوز، سرقوا كل شيء ومالم يستطيعوا سرقته أحرقوه، شهوة غريبة في الخراب والتدمير، وانتهت الاربعون يومًا الأصعب في تاريخ العراق بعد أن تحولت لمقبرة ومدينة أشباح.

أصدر هولاكو أوامر جديدة بأمان حقيقي لكل المتبقي من أهل بغداد، ماذا جرى هل استيقظ ضميره؛ أم حن قلب ذلك السفاح، لا بل الحقيقة أنه وخاف على نفسه وجنده من خطر الأوبئة فقد أصبحت الجثث كالتلال، أمر بأمان حقيقي لكل الناس يخرجوا ليدفنوا موتاهم، يدفنوا مليون قتيل، خرج الرجل ليدفن أمة وزوجته وأولاده، والله كانت مأساة لم تُرى من قبل، ولكن تعفن الجثث جاء بوباء آخر مات منه عدد آخر من المسلمين، ومن لم يمت بالطعن مات بالطاعون.

عُين ابن العلقمي حاكما صوريا للتتار، وكان مثل الرجل المحلل قام لدور معين ولا قيمة له بعد ذلك، فقد تمت إهانة هذا الحاكم مِن مَن؟ هولاكو...لا والله من صغار الجند في التتار، استحق جزاء خيانته والمدهش في الأمر أنه شعر بالإهانة الشديدة مما جعله يجلس حزينا في بيته حتى مات بخيانته، تولى بعده ابنه الذي مات هو الآخر في نفس العام، وكان هذا المنصب قد أصبح شؤمًا لكل من يصل إليه، مات الخليفة وسقطت الخلافة ومع وصول الأنباء لكافة العالم الإسلامي لم يصدق ما حدث، كيف تسقط عاصمة الخلافة لأكثر من خمسة قرون بهذه السهولة، أين الخليفة؟ لم يعد هناك خليفة، وأين الحكومة المركزية للمسلمين مأساة بكل المقاييس، ان الحكم الذي شيد واستمر على اكتاف الرجال قد

انهار ووقع على يد أشباه الرجال اكل التتار بغداد في اقل من شهر وكأنهم في نزهة عسكرية، ذبح أهلها وقادتها مثل النعاج، التهم التتار كنوزها، حرقوا كل شيء ودمروها، الكل مسئول يا سادة من شعب متخاذل نسي أوامر الله ورسوله ونسي الاستعداد للعدو، وغرق في المعاصي والشهوات، لوزراء وأمراء أفسدوا الحكومة والحكم وتنافسوا على الأراضي والضيعات، مرورا بوزير خائن استمر في منصبه أكثر من أربعة عشر عامًا، نهاية لرأس الحكم المتخاذل ذلك الخليفة الضعيف المشغول بملذاته ومتعة، إذا رجعنا لعام ٦ هجريا وبعد غزوة الأحزاب حصل مشهد مشابه للهدنة التتارية في بلاد الاسلام التي استمرت عشرة أعوام، حيث أُبرمت بنود صلح الحديبية بين المسلمين وقريش وكانت شروط شاقة على المسلمين حيث استطاع المسلمون بقيادة المصطفى صلى الله عليه وسلم في تلك الفترة أن يأخذوا بكل أسباب النصر من استعداد ونشر للدعوة وتأمين لحدود دولتهم، وبعدها بسنتين عندما أخلت قريش ببنود تلك المعاهدة جاء لها جيش المصطفى بعشرة آلاف مقاتل لفتح عقر دارهم مكة، فقد جنى المسلمين ثمار الاستعداد وقت السلم ليصبحوا أسودا تزأر وقت الحرب، عكس ما فعله المستعصم وشعبة في بغداد، فقد توقفت الحروب التتارية لمدة عشرة أعوام كاملة، بدأ من خلالها هولاكو يراقب ويتواصل داخل البلاط العباسي والخليفة وشعبة ورجالة في ثبات عميق لدرجة أن الخلافة فوجئت بجيش التتار قادما من الصين، ان من سنن الله نصر جنده الذين يأخذوا بأسباب النصر، لا ينصر المتخاذلين الذين دعوا للحياة الدنيا ونسوا واجبهم تجاه

وطنهم، استحق الرجال من ٦ هجريا للعام ٨ هجريا الفتح والتمكين والوصول لمكة، بينما استحق أشباه الرجال من ٦٣٩ إلى ٦٥٦ هجريا إلى الذل والهوان وضياع الارض والعرض.

حزن كل المسلمين في شتى بلاد العالم فالألم غائر والجرح عميق وحاول عامر في حلب مراسلة ابن خالة شمس، القتلى كثير حوالي مليون من تعداد ثلاثة مليون ولكنه فشل في مراسلته، فقد عثر على شمس بعد موقعة الأنبار عدد من التجار الأتراك الذين أخذوه معهم لشمال سوريا على حدود تركيا حيث كان هناك أحد التجار يدعى صفى الدين الذي قام بعلاجه واستضافته بل وأعجب به وبأخلاقه كثيرًا لدرجة أنه عرض عليه مساعدته في التجارة ومشاركته وذلك لما لمس من أمانة وحسن خلق، وبدا شمس الدين يسافر من شمال سوريا لحدود تركيا في رحلات تجارية مع صفى الدين الذي تنامت صداقته معه والتقت أفكارهم وأخلاقهم بعكس ما وجد من عامر ابن خالته، هكذا تسارعت الأحداث التي بدأت بالتخطيط لغزو العراق وانتهت بالنهاية المأساوية لأهل بغداد وهجرة كل من شمس الدين بعد إصابته في معركة الانبار إلى الحدود التركية، وفرار عامر بحياته الى حلب، هل سيكتفى التتار بنا حققوه من مكاسب كان آخرها الاستيلاء على كنوز العباسيين وملكهم أم أن الطموح التتري مازال بعيدًا، هذا ما سنعرفه في الفصل الثالث.

الفصل الثالث

امتلأت أحداث الفصلين السابقين بأحداث مأساوية، كان المارد التتري يصول ويجول في كل أراضي الأمة الإسلامية من شرقها والدولة الخوارزمية حتى وصل للدولة العباسية واجتاح بغداد، شرد من أهلها جزء، قتل جزء أكبر، وتبقى جزء ثالث، ومن الجزء الذي شرد كان شمس وعامر كما ذكرنا ولكن هناك فارق كبير بين الاثنين رغم أنهم كانوا شركاء وأقارب بينهم صلة الدم، لكن تشريد عامر كان هربا بحياته وأمواله واستقر به المقام عند عمه في حلب الذي كان يملك تجارة ليست بالقليلة وساعدة عامر واستقر به العيش هناك، أما تشريد شمس الدين كان طواعية عندما خرج مثل كثير من الرجال الذين حاولوا الدفاع عن بلدهم وأرضهم، ولكن استعداد التتار كان أقوى وهزم الجيش العباسي كما ذكرنا، استمر مع صديقه صفى الدين الذي ساعده وجعله يدًا بيدٍ معه في تجارته من سوريا لتركيا واستقر به العيش هناك، اعجب صفى الدين بأخلاق وشهامة شمس لدرجة أنه عرض عليه تزويجه بأخته، وبالفعل تزوجها شمس واستقر به المقام في ولاية ميافارقين حيث عاش مع زوجته هناك وبدأ يمسك تجارتها ليطيب له العيش هناك ولو ان القلب مازال مكتويًا بجراح مليون مسلم لم يمضى على قتلهم شهور قليلة، ولكن شمس الدين حاول نسيان ما حدث وركز في تجارته، ولكن كان ثأره مع التتار مستمر معه في كل لحظة.

كانت الأحداث السياسية سريعة أيضًا وكان من الواضح أن بغداد ليست آخر محطات هولاكو الذي تركها لهمدان ومنها لقلعة قرب إيران وضع فيها كل كنوز العباسيين، بالطبع ستكون المحطة التالية لهولاكو هي أرض الشام، بدأ يلتقي بحلفائه سواء من الصليبيين أو الخونة أمراء الموصل والاناضول والشام، وبالفعل أصبحت الشام طواعية له بنسبة ٩٩ %، ما المشكلة إذن.

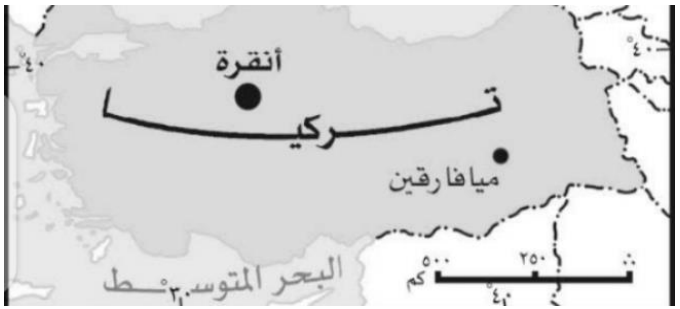

ظهر أحد الأمراء الأيوبيين الذي رفض الانخراط في تلك التحالف الراكع لهولاكو، نعم ظهر أحد الرجال الحقيقين وهو الكامل محمد الأيوبي، حاكم مدينة ميافارقين الواقعة في شمال العراق قرب الحدود الشرقية لتركيا، حيث كانت جيوش الكامل الأيوبي تسيطر على شرق تركيا مرورا بالجزيرة الواقعة عند نهرى دجلة والفرات وهذه مشكلة كبيرة لهولاكو حيث أن هناك عقبة الآن في الطريق للشام يسيطر علي هذه العقبة الكامل الأيوبي تمتد من:

- شرق تركيا

- شمال غرب العراق
- شمال شرق سوريا

لا يستطيع هولاكو الوصول لسوريا بدون المرور من شمال العراق حيث بذلك.

يجب إخضاع ميارفارقين بالقوة وهي مدينة حصينة بين سلاسل جبال البحر الأسود، والكامل الأيوبي أعلن بصراحة عدم دخوله تحالف المنبطحين الذي تزعمه أقاربه من الأيوبيين، ماذا جنيت يا هولاكو ولكنه قدرك فليس كل الرجال اقزام مثل الناصر والأشرف وبدر الدين لؤلؤ، يوجد رجال بمعنى الكلمة لا تركع إلا لله ولا تقبل الشروط من أي مغتصب وتحمي الأمانة التي ولاها الله عليها وهي الحفاظ على الأرض، الناصر يوسف والكامل الأيوبي كان يجري في عرقهم دم واحد مثل شمس الدين وعامر ولكن سبحان الله فعند الامتحانات والكروب تتباين الرجال.

هولاكو الآن يفكر بالتعامل مع ذلك المارق الخارج عن النظام الدولي، بالطبع شن ضده حرب إعلامية شرسة أنه خارج عن التحالف، مختل، يقود بلاده إلى الهاوية، وأيضًا لا يمثل الإسلام الحنيف...!! نعم من يمثل الإسلام الحنيف عند هولاكو هو بدر الدين لؤلؤ والناصر يوسف.

بدأ مع الكامل الأيوبي بالطرق الدبلوماسية وقرر إرسال رسول له كي يقنعه بالتسليم غير المشروط، حيث كان هذا الرسول من مسيحي الشرق اسمه قسيس يعقوبي، وكان لهولاكو أغراض من اختيار ذلك الرسول:

أولًا: هو عربي يتكلم بنفس لهجة الكامل الأيوبي، ثانيا: لكي يعطى رسالة غير مباشرة للكامل الأيوبي بتحالف الصليبين مع التتار مما يشكل ضغطًا على ميارفارقين فلو رجعنا لخريطة المدينة نجد أن حدودها:

- الشرق تحدها ارمنيا (صليبية) متحالفة مع التتار.
- الشمال الشرقي (الكورج) صليبية متحالفة مع التتار.
- الجنوب الشرقي الموصل بقيادة بدر الدين لؤلؤ الخائن.

الغرب السلاجقة وأمراؤهم العملاء.

-الجنوب الغربي حلب تحت قيادة الناصر يوسف الخائن.

أصبحت المدينة مثل الراجل الصالح وسط مجموعة من العملاء والظالمين، الى أين المخرج وقد انتشرت الخيانة والعمالة في المنطقة؟ ماذا فعل الكامل الأيوبي مع ذلك الرسول؟ أمسك به وقتله، اختلف المؤرخين على سلوك قتل الرسول ولو أن المعظم التمس للكامل الأيوبي العذر فلم تمضِ شهور وأيادي التتار ملطخة بدماء أكثر من مليون مسلم قتلوا أكثر منهم في الدولة الخوارزمية، كان قتل رسول هولاكو إعلانا واضحا من الكامل الأيوبي بالحرب وأيقن هولاكو أن لا سبيل لدخول الشام إلا بعد القضاء على هذا الأمير، بدأ الكامل الأيوبي يحفز أهله وجنده على حماية أسوار المدينة، وفى الحقيقة ابلو بلاء حسنًا على قدر امكانياتهم

اهتم هولاكو بالأمر غاية الاهتمام وأرسل جيش كبير لحصار ميافارقين بقيادة ابنه أشموط واهتم بالأمر جدًا، فهو متعود على الركوع دائما أو هروب أعدائه، إنما وجود عنصر عصى الكسر هكذا

يجب أن يكون عبرة لكل من تسول له نفسه الصمود أو الكفاح واتجه الجيش لميافارقين ومعه في الحصار جيوش الكورج وأرمينيا، وبالطبع مرَّ جيش التتار من الموصل بلد الخائن بدر الدين لؤلؤ الذي فتح أرضه للتتار كي يحاصرون إخوانه.

طلب الكامل الأيوبي مباشرة من الناصر يوسف مساعدته بالمؤن والسلاح ولكنه رفض تمامًا، كان الأمراء المسلمين في منطقة الشام في مرحلة من العمالة والخيانة لم تسبق من قبل فبرغم كل هذه الاحداث وتركة مساعدة إخوانه، يراود هذا الناصر يوسف امير حلب أمر غريب وعجيب وهو مراسلة هولاكو من اجل مساعدته في الاستيلاء على مصر، تخيل...؟

إلى كم وصل التردي والعمالة في ذلك الوقت.. حيث أرسل معه ابنه العزيز...!!

العزيز والناصر والأشرف ومغيث الدين، والله ما هي إلا أسماء جوفاء لا يمت لها أصحابها بصلة، أرسل ابنة إلى هولاكو محمل بالهدايا والطلب في المساعدة لغزو مصر، ولكن على نفسها جنت براقش، استفذ هولاكو من الأمر! كيف تبعت لي ابنك ولا تأتي أنت، وكيف يكون لك طموح في أن تكون ملك لمصر وأنا موجود، أرسل هولاكو ردًا قاسيا للناصر يوسف يهدده ويتوعده ويطلب منه التسليم فورا لحلب وإلا فقد رأى مآل خليفة بغداد.

جزء من رسالة هولاكو للناصر يوسف:

(الذي يعلم به الملك الناصر صاحب حلب انا قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى وقتلنا فرسانها وهدمنا بنيانها واسرنا سكانها كما قال تعالى في كتابة العزيز (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها

وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) واستحضرنا خليفتها (يقصد ما حدث للمستعصم) وسألناه عن كلمات فكذب فواقعه الندم واستوجب منا العدم، وكان قد جمع ذخائر نفيسة وكانت نفسه خسيسة، وجمع المال ولم يعبأ بالرجال وكان قد نما ذكرة وعظم قدرة ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال، إذا وقفت على كتابي هذا فسارع برجالك وأهلك واموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض، تأمن شره وتنال خيرة، ولا تعوق رسلنا عندك فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بحريمهم إلى مصر فإن كانوا في الجبال نسفناها وإن كانوا في الأرض خسفناها، أين النجاة ولا مناص لهارب وليا البسيطان الندى والماء، ذلت لهيبتنا الأسود وأصبحت في قبضة الأمراء والوزراء)

بكى الناصر يوسف وقال والله لو أحدًا يخاطب عبدًا ما يخاطبه بهذه الطريقة ولكنها الذلة والمهانة التي وضعها الله في قلوبهم وإلقاء الرعب من أعدائهم لبعدهم عن منهج الله، وخيانتهم الأمانة، وطعن إخوانهم من الخلف، لم يقدر هولاكو مساعدة الناصر له في غزو بغداد فغالبا الأعداء يحتقرون العملاء ويتخلصون منهم في أقرب فرصة.
فوجئ الناصر يوسف وارتعد ولأول مرة يغير طريقته ويقرر...! دخول الحرب مع التتار وعدم التسليم، ولكن هل هو أهلٌ لذلك، هل الكفاح والنضال والصمود متروك لأي أحد، الناصر يوسف الذي اعان لويس التاسع ملك الصليبيين من أجل إعطاءه بيت

المقدس يريد النضال، الناصر يوسف الذي أعان هولاكو في غزو العراق بل وهنأه وهو قالت مليون مسلم يريد الكفاح، الناصر يوسف الذي أراد مساعدة التتار في غزو مصر وأهلها يريدون الصمود.

الناصر يوسف الذي تخلى مباشرة عن مساعدة الكامل الأيوبي وترك شعبة فريسة لحصار التتار يريد أن يبقى رجل، هيهات يا يوسف فما هكذا تؤكل الإبل، إن الرجولة لا تكتسب من العدم، فأنت عدم في الرجولة والشهامة ومن الصعب أن تتحول مرة واحدة رجلا.

اختار الناصر يوسف مكان معسكرة قرب دمشق، ليس عند حلب حتى يكون بمنأى عن التتار ويسهل الهرب وقت اشتد الوطيس، لأنه من المفروض يعسكر قرب حلب ولكنه فضل الهرب وراسل كل من تتخيل أمير الكرك، وأمير مصر...! الذي كان سيحاربه منذ قليل ولكن المصلحة والغاية هي التي تسير حياة هذا اليوسف الذي هو مستعد للتحالف مع ابليس نفسه إذا كان سيحقق له مصلحته، نترك الناصر يوسف ونذهب لهولاكو الذي بدا ترتيب أوراقه بعد فهو يدير المنطقة من همدان وابنة مرابض في الحصار على ميافارقين، وهو الآن يفكر ايهما يبدأ في الشام يأكل حلب أم دمشق أولا، بدأ يحلل الموقف في الشرق الأوسط.

حلب

عليه اختراق الشمال العراقي ثم سوريا من الشمال الشرقي موازي لتركيا ليصل لحلب، يوجد معوقات طبيعية ولكنها كثيرة الأنهار (دجلة والفرات) والموارد الطبيعية والزرع، أي انه لن يجد مشكلة

في طعام وشراب الخيل، ايضا قريبة من ميا فارقين وهذا سيساعد أي مدد يطلبه جيش أشموط المحاصر لميافارقين.

دمشق

عنصر مباغتة رهيب، لأن الجميع يتوقع مجيئه من الشمال، أما أن يخترق صحراء بادية الشام الخطيرة القاحلة فهذا أمر غير متوقع، ويصل للناصر يوسف مباشرة مع أنه لا يعني اهتمام أصلا لذلك الناصر.

هولاكو اختار الوصول لحلب أولا وآثر السلامة حفاظا على جيشه.

تحرك من همدان ثم العراق ومرَّ من الموصل الحليفة، ثم عبر نهر دجلة ليصل قرب تركيا جنوب ميافارقين واتجه لاحتلال المدن جنوب تركيا دون مقاومة لأنها بلاد السلاجقة العملاء، ثم عبر قرب الحدود التركية السورية وكل هذا كان عام ٦٥٧ هجريا، استغرق حوالي عام حتى وصل قرب حلب، التي رفضت التسليم،

مع أن أميرها أصلا غير موجود فهو معسكر قرب دمشق ف الشمال كي يكون بعيدا؛ تزعَّم المقاومة في حلب توران شاة عم الناصر يوسف، كان شيخًا كبيرًا لكنه كان رجلا بمعنى الكلمة عكس ابن أخيه الجبان، نصبت المجانيق حول حلب، وبدأ القصف؛ ولكن هل فكر الناصر يوسف في مساعدة مدينته وأهله؟

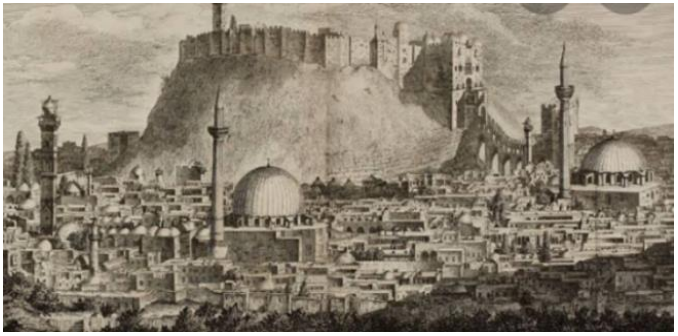

بالطبع أنتم من يجيب، فقد عرفتم هذا النوع جيدًا، أثناء تواتر الأخبار بمجيء جيش هولاكو فرَّ كثير من التجار إلى الشام ومنهم من فرَّ إلى دمشق، وبالفعل كان عامر من أول الفارين، ترك عمة وتجارته وأصبح كل همة النجاة بحياته، أصبح متعودًا على الفرار والتولي، بدل من أن ينضم للمقاومة هرب كالفأر، وبدأ مع قوافل الفارين يريد الوصول لمصر.

في هذه الأثناء كان شمس الدين قد رزقه الله بنعمة، وهي بنت جميلة أحبها وكانت روحه في ظل تلك الظروف حيث كان يعيش مع زوجته حياةً سعيدةً في تلك المدينة الباسلة ميافارقين، ولكن التتار جاءوا ليعكروا صفوا كل شيء وأصبح الأمر مختلف عن

الأول، طلبت زوجته وأخت صديقة صفي الدين، انهارت تلك الأم الخائفة على بنتها وأهلها فمآسي التتار معروفة ولم تنسى، طلبت منه عندما حاصر أشموط المدينة أن يغادروا إلى مصر، لكن ذلك المناضل رفض وقال لها إن الأرض والأهل في خطر والعدو مستوحش، وقد وثق الكامل الأيوبي فينا، فهل نخذله، زوجته تخشى على حياتهما وخصوصًا ان أصبح عندهم بنت جميلة ادعى للحرص على الحياة ولكن شمس الدين سألها: لو كل واحد ترك المدينة وفرَّ، من سيدافع عن الأرض؟ ماذا نقول لربنا عند السؤال عن الأمانة؟ كانت أيام عصيبة تمر بالشعب الميافارقيني؛ فقد كان الحصار شديد، واستقروا على أن تذهب مع النساء والأطفال الذين استطاعوا الخروج ليسهل على الرجال الدفاع عن المدينة.

تقريبًا حلب تحاصر وبها عامر وميافارقين وبها شمس تحت حصار أشموط بن هولاكو، توافقت ظروف الاثنين (شمس وعامر) كالعادة تشابه الموقف، تماثلت الضغوط ولكن اختلف الرجلين كالعادة فهما مختلفين من البداية ولم يلتقيا أبدًا، التقت حياتهما، تجارتهما وعملهما بل والظروف المحيطة، لكن عند الامتحان ظهر التباين، كشف كل واحد عن معدنة، خرجا من بغداد تحت نفس الظرف لكن واحد خرج مناضل ليدافع عن وطنه وبلدة والآخر متخاذل جبان خرج ليفر بحياته ومالة، أين القمر من كواكب الجوزاء؟؟، هل يستوي الرجال بالذكور؟ هيهات.

انضم شمس لقوافل المدافعين عن المدينة بل زاد من الأمر أنه بدأ يأخذ من أمواله لمساعدة باقي الشعب لفك ذلك الحصار الصعب، الآن أصبحنا على مشارف عام ونصف، وبدأت كل البضائع في النفاد، بل نفد الدواء، والأمراء المسلمين لا يبالون وكأن هذا الشعب ليس له عليهم حقوق الإخوة على الأقل، استطاع التتار في خلال فترة وجيزة زرع الجبن والخوف عند أفراد الامة، أصبح المعظم لا يهتم إلا بنفسه ولا يبالى بإخوانه، دخل شمس الدين في الصفوف الأمامية للمقاومة وتطوع للدفاع عن المدينة واشتد وطأة الحصار وبدأت أسوار المدينة في الوقوع، انهالت جيوش التتار من ذلك السور، وقعت مدينة ميافارقين، سقطت المدينة الباسلة بعد أكثر من ثمان عشر شهر، سنة ونصف من الحصار، سنة ونصف والعالم الإسلامي كلة يشاهدهم ولا يتحرك له ساكنا، سنة ونصف والشعب يعانى والأشرف والناصر ومغيث الدين في عالم آخر، سنة ونصف هي وصمة عار لكل من كان بإمكانه مساعدة ذلك الشعب المقاوم ولم يساعده. دخل أشموط بجنده ينتقم من أهلها ويحرق ديارها، وكانت زوجة شمس الدين وبنته خرجت مع رهط من النساء الى خارج تركيا عند الحدود السورية كما ذكرنا، قاتل شمس الدين ورجال الكامل الأيوبي ولكن عدد التتار كان رهيبا، تجمع ثلاثة رجال على شمس الدين اثنين من امامة وواحد من خلفة وبإصابته أحدهما، وطعن الآخر الذي أمامه، فاجأه الثالث من خلفة بطعنة غادرة وقع على إثرها وهو يرفع راية النصر ناطقًا الشهادتين، في نفس الوقت كان التتار يسعون في أرض ميافارقين ويستبيحوا حرماتها وقتلوا معظم

أهلها إلا واحد فقط، الكامل محمد الأيوبي الذي رفض الركوع لهولاكو فقد أمر هولاكو بعدم قتله وأن يأتوا إليه في حصاره لحلب بفرقة تتارية .

قامت كتيبة تتارية باصطحاب الكامل في طريقها لحلب، وكانت قوات التتار تقتل أي من الفارين من المدن المحاصرة فقد استهوتهم شهوة القتل، ومنظر الدماء، وفى أثناء قرب تلك الفرقة من حلب وعلى بعد عشرين كيلو وجد مجموعة من الرجال فارين من حلب، وبدأت الكتيبة التتارية تطاردهم وكان من بينهم عامر هارب بأمواله وحياته، وبالفعل وصلت تلك الكتيبة وحاصرت هؤلاء الجبناء الذين ماتوا رعبًا فقد اعدوا كل شيء للهرب والخروج من تلك المدينة قبل مجيء هولاكو ولكن أراد الله أن يأتي لهم التتار من ميافارقين، قتلوهم كلهم وعندما رأى عامر ذلك المشهد المرعب طلب منه قائد تلك الفرقة التتارية التوسل له أرضا وبالفعل توسل له وهو منبطح أرضا ثم أخذ خنجرة ووضعه في ظهره وهو في ذلك المشهد المخزي، مات شمس الدين تقريبًا في نفس وقت موت عامر لم يفرق بينهم إلا أيام معدودة، ولكن حقيقة الفرق كبير، فشتان بين عاش حياته مناضل له فكرة ومبادئه، له ثوابته وهويته، بحب وطنة وأهله، يدافع عن الحق ويساند المظلوم، وبين من عاش دنيته مفتون بالدنيا مستعد للتضحية بأي شيء من اجل نزواته وشهواته، عاش متسخط على أهله رافض لحياتهم، منبهر بأعدائه يرى فيهم التحضر والقوة والبطش حتى كان ذلك البطش نهاية له، حتى طريقة الموت تتشابه في شكلها، تختلف تمامًا في مضمونها، فقد مات الاثنين

بالطعن في الظهر ولكن شمس الدين مات واقفا رجلا مكافحا وهو يدافع عن أرضه، بينما مات عامر راكعا متخاذلا يأمل حتى في آخر لحظاته أن يمن عليه عدوة بالحياة حتى لو كلفتة تلك الحياة الانبطاح والركوع .

استجمع هولاكو كل شره في الانتقام من الكامل الأيوبي وقرر أن يعذبه كي يركع له ولكنه رجل، رفض بالطبع وتحمل كل أنواع العذاب حتى فاضت روحه إلى بارئها وأمر هولاكو بأخذ رأسه والطواف بها في كل أنحاء دمشق ليكون عبرة لمن يفكر يفعل مثله.

إذا كنا قد نظرنا إلى الفرق بين حال ومئال كل من شمس وعامر فقد يدهشنا أيضًا النظر لعاقبة كل من المستعصم والكامل الأيوبي فتقريبًا كلاهما وضع في نفس الموقف وهو الحصار الشديد، تماسك الكامل وناضل ودافع عن أرضه في حين تخاذل المستعصم وسلم بلاده لقمة سائغة للتتار، كلاهما مات فهل اطال جبن المستعصم عمرة؟ وهل قصرت شجاعة الكامل من أجله؟ لا والله فكلاهما مات في الميعاد المحدد له، واحد مات متخاذل أضاع مُلكه وملك أبائه وأجداده، بل سيذكر التاريخ أن في خلافة المستعصم سقطت الدولة العباسية التي حكمت خمسة قرون، أما الآخر فقد ناضل وكافح ولم يركع بل أتعب التتار سنة ونصف كاملة، كانت محنة الحصار كفيلة لإظهار الفرق والاختلاف بين خليفة متخاذل غارق في لهوه، لم يحافظ على الأمانة، وبين أمير شجاع ناضل وكافح على قدر إمكانياته وقُدرة وجودة بين ملتقى من الخونة والعملاء.

استتب الأمر في حلب لهولاكو وأبقى على الشيخ توران شاة لم يقتله، وجاوزها لحماة التي سلمت لهولاكو، ثم حمص بلد حليفه الأشرف الذي أعطاه حلب ليشرف عليها تحت حكم التتار، بدأ جيش التتار يتحرك نحو أهم جزء يتبقى لهولاكو في الشام وهي دمشق، هل جاء اللقاء مع الناصر يوسف، عقد ذلك الناصر يوسف لقاء مع الأمراء للتشاور في أمر الحرب وكان القرار هو الفرار، نعم الفرار وترك المدينة وأهلها لقمة سائغة للتتار، وبالفعل هربوا وتركوا المدينة، قبل وصول هولاكو لدمشق جاءت الأنباء بموت **مينكو خان** خاقان التتار مما استلزم رجوع هولاكو لعاصمة التتار للتشاور في أمر الحكم، حيث قبل وصولة علم بتعيين خاقان جديد ذلك الأمر الذي أثار غضبه وجعله يستقر فترة في مدينة تبريز يقود المنطقة من هناك ويتابع كيف تسير الأمور، عين قائدة كاتوبغا قائد للجيش خلفة الذي بمجرد وصولة دمشق فتحت المدينة له أبوابها بدون قتال ودخلت التتار تلك المدينة العظيمة، عاصمة الخلافة الأموية، من أعظم مدن الإسلام، أواه يا دمشق يا درة العالم الإسلامي ولؤلؤة الشام، أين خالد بن الوليد ومعاوية بن أبي سفيان، أين **عماد الدين زنكي**، وأين صلاح الدين الذي يوجد قبرة في تلك البلاد، ان اختلاف الرجال والله لمن الالم لكثير، أين هؤلاء الرجال وماذا جنى أهل دمشق حتى يبتلوا بمثل هؤلاء الرجال الذين في عهدهم ضاعت كل أراضي الآباء والأجداد، ضيعوا كفاح الرجال بتخاذلهم وجبنهم .

دخل التتار لفلسطين واحتلت غزة وذلك بالتنسيق الكامل مع الإمارات الصليبية هناك، وذلك مع ٦٥٨ هجريا، أي أنه في خلال

سنتين استطاع التتار إسقاط العراق بأكمله، تركيا، الشام بالكامل حتى استولوا على غزة وأصبح التتار على بعد ٣٥ كيلو من سيناء...!!! أصبح الهدف الرئيسي القادم للتتار هو مصر.

واجه التتار منذ التهامهم الصين ودخولهم دولة الخوارزميين ثم كل بلاد الشرق الإسلامي ومذابحها في بغداد واستيلائها السهل على الشام وفلسطين، واجهوا أشباه من الرجال، ذكورا في ثوب رجال، لم يحتكوا بمعدن الرجال الأصيل؛ اللهم إلا في الكامل الأيوبي الذي كان يغرد وحيدًا خارج السرب، أو بعض الأتباع المخلصين مثل شمس الدين، ولكن هل كان في ذلك الزمان ندرة من الرجال؟ هل فعلا ما كان يقال: (إن الرجال قليلون)، وهل ستستمر نزهات التتار العسكرية وتسليم المدن الواحدة تلو الأخرى لهم، هذا ما سنعرفه في الفصل الرابع والأخير.

الفصل الرابع

نبذة هامة عن المماليك:

قبل أن ندخل غمار المرحلة التالية من مسلسل الغزو التتري الذي نتمنى كلنا من المنتج أن يوقف بث هذا المسلسل الحزين عند هذا الحد وكفانا ضياع للبلاد والأراضي العربية، نود تسليط الضوء عن مجموعة حكمت مصر في تلك الفترة اسمهم المماليك فمن هم بإيجاز شديد؟

- مجموعة من الأفراد خدموا في الامبراطوريات السابقة من عائلات من القوقاز وتركيا وبلاد ما وراء النهر .

- بدا تجنيدهم إبان حكم العباسيين في القرن التاسع واستخدمتهم تقريبًا معظم الدول الحاكمة (الطولونية – الإخشيدية - الأيوبية) وتميزوا بالدقة والتدريب المتقن ولذا استطاع مليء كثير من الجيوش.

-بعد حكم صلاح الدين وتوالى الملوك الأيوبيون استخدمهم الملك الصالح نجم الدين أيوب للحماية من الانقلابات الداخلية وأيضًا من التهديدات الخارجية من الصليبيين ولذا استخدم فرق مماليك من الأتراك كانوا غالب عصب الجيش حيث تميزوا بقوة وبأس القتال.

- سمى المماليك نسبة للملك الذي اشتراهم من الأسرة الأيوبية فسمى هؤلاء المماليك بالصالحية نسبة الى الصالح نجم الدين أيوب.
قربهم له وبنى لهم قلعة بجواره وسمى المماليك الصالحية باسم المماليك البحرية لقرب القلعة من النيل.
- تولى قيادة الجيش في مصر أقطاي وكان مساعدة ركن الدين بيبرس.
- سير لويس التاسع حملة صليبية لدمياط تكون ممر للوصول الشام وكانت تسمى الحملة الصليبية السابعة عام ٦٤٧ هجريا.
- في هذه الأثناء مرض الملك الصالح مرضا شديد وكان طريح الفراش مما اذاع نبأ بوفاته ففت ذلك في عضد الجند وتمكن لويس التاسع من دخول دمياط بسهولة غريبة .
- انتظر الجيش المصري في المنصورة لقطع الطريق على الصليبين قبل الوصول للقاهرة وكان على رأس الجيش أقطاي وبيبرس.
قبل التقاء الجيشين توفى الملك الصالح وهو يرسم الخطة للدفاع عن أرضه، مات وهو يدافع ويحفظ الأمانة، مات وهو في ميدان المعركة.
أزمة شديدة تعصف بالبلاد، استطاعت شجرة الدر زوجة الملك الصالح كتم خبر الوفاة وأرسلت لابن الملك الصالح (توران شاة) بخلاف مجاهد حلب طبعًا .
- كلفت أقطاي بالإعداد لمواجهة الصليبيين.

٤ ذو القعدة عام ٦٤٧ انتصر المصريون، انتصار هام وبارع على الصليبيين، وتم دحر ذلك المعتدي وانسحب ناحية دمياط والتقى به ثانية عند فارسكور وانتصر عليهم مرة أخرى ولكن بقيادة توران شاة الذي عاد ليستلم حكم أبيه.

- تم أسر لويس التاسع وكل جيشه ووُضع في دار بن لقمان في المنصورة وبمبلغ كبير جدًا تم الإفراج عنه، ليكون يوم المنصورة يوم من أيام الانتصار المجيد الذي خلّد بطولة المصريين والمماليك في دحر هؤلاء الغزاة.

- بدأ توران شاة بالتغير والمرض، مرض بشهوة الانتصار والغرور حيث بدأ يعادى الجميع (شجرة الدر - أقطاي - بيبرس) معظم المماليك وأخذ يقرب خاصته ممن أتوا معه من حصن حيفا.

- بدأت تغيرات تلوح في الافق في طبيعة الجيش المصري، مما أثار القلق الكبير في صفوف المماليك وشجرة الدر .

- اتفق المماليك على قتل توران شاة والتخلص منه.

- محرم ٦٤٨ هجريا تم قتل توران شاة وبذلك انتهى حكم الأيوبيين في مصر.

- أصيبت مصر بفراغ سياسي تام حيث لا يصلح أحد لحكم مصر.

- الأيوبيون في الشام ازدادت أطماعهم في مصر وحقهم على المماليك الذين كانوا السبب في التخلص من أحد الأيوبيين (توران شاة).

- لأول مرة بدأ المماليك يفكرون في الانتقال من مرحلة الاستخدام في الجيش إلى مرحلة التحكم في الجيش والحكم نفسه.

- هل يتقبل الشعب حكم المماليك وهم جاءوا عبيدًا رغم قوتهم الحالية.
- شجرة الدر تحكم مصر في فترة انتقالية، وذلك بالاتفاق مع المماليك.
- مظاهرات وغضب شامل في مصر وسائر الأقطار معترضين على حكم امرأة.
الوضع مقلق والكل طامع في مصر من صليبيين، وأمراء الشام، وأيضا من خلفهم التتار الذين كانوا لم يدخلوا بغداد بعد في ذلك الحين.
- اتسعت نطاق المظاهرات وندد العلماء بذلك الأمر.
- الإمام الجليل العز بن عبد السلام اعترض أيضًا على الأمر.
- كان وقتها مازال المستعصم خليفة بغداد حيث سخر من الأمر وبعت برسالة يقول فيها لأهل مصر (إذا كانت الرجال عدمت عندكم فأرسلوا لنا نبعث لكم رجلًا) ولي هنا وقفة هامة؛ بدأ الأمر يخرج خارج نطاق السيطرة، تزوجت من عز الدين أيبك من المماليك الصالحية، حيث كان معروفًا بهدوئه.
بعد ٨٠ يوم تنازلت شجرة الدر عن الحكم لأأيبك الذي تلقب بالملك المعز، وبهذا كان قبولًا طبيعيًا من الشعب للمماليك حيث كانت الأحداث تعد لقبول هذا، فالشعب يقبل مملوك يحكمه ولا يقبل امرأة.
توقعت شجرة الدر أنها ستحكم من وراء الستار وأن الملك المعز سيكون مجرد واجهة.

كان عز الدين أيبك رجل ذكي تمكن تدريجيا من تقوية وجودة ونفوذة لمواجهة شجرة الدر ومن خلفها أقطاي، وبدأ يشترى كثير من المماليك، سموا بالمماليك المعزية.

- وضع على رأس هؤلاء المماليك...؟ سيف الدين قطز .
- بدأت خلافات بين المماليك البحرية وعز الدين أيبك.
- حاول أمراء الشام غزو مصر وانتصر عليهم عز الدين أيبك .
- ٦٥٢هجريا، أقطاي يفكر من الزواج من إحدى الأميرات الأيوبية.
- راقب أيبك الموضوع وعرف طموح أقطاي ومؤامرته للوصول للحكم.
- أوامر من أيبك بقتل فارس الدين أقطاي .

-ظهرت قوة أيبك بوضوح وزادت قوة مماليكه واعترف له المستعصم بالملك في مصر.

- استتبت الأمور لأيبك وانقسمت القوى في المماليك إلى:

1) المماليك البحرية تدين لبيبرس وشجرة الدر .
2) المماليك المعزية تدين بالولاء المطلق لأيبك.

قرر زعماء الملوك البحرية الهروب للشام خوفا من أن يفعل أيبك معهم مثلما فعل مع أقطاي وكان على رأسهم بيبرس.

- عام ٦٥٥هجريا أصبح الوضع تمامًا في يد أيبك وبدأ دور شجرة الدور في التنحي كليا، وعين سيف الدين قطز قائدًا للجيش المصري .

- عام ٦٥٧هجريا طلب أيبك لعمل حلف مع أمير الموصل أن يتزوج بنت أمير الموصل – الخائن- بدر الدين لؤلؤ، ليعضد ذلك الزواج الحلف ويثبت نفسه في المنطقة.

-شجرة الدر امرأة مثل أي امرأة حتى لو كانت حاكمة، أكلت الغيرة قلبها ودبرت مؤامرة، وبالفعل نجحت في تدبير اغتيال لعز الدين أيبك عام ٦٥٥ هجريا.

أسرع قطز بإلقاء القبض على شجرة الدر، وطلبت زوجة أيبك الأولى الانتقام من شجرة الدر؛ فمكنت جواريها من قتلها.

بويع لابن أيبك نور الدين على خمسة عشر عامًا حاكمًا تحت وصاية سيف الدين قطز عام ٦٥٥ هجريا الذي أصبح الحاكم الفعلي لمصر من وراء الستار، وذلك قبل سنة واحدة من اجتياح بغداد، ولكن من هو سيف الدين قطز؟

من أعظم وأمهر، القادة، من أشهر قادة المسلمين، هو:

محمود بن ممدود الخوارزمي، ابن أخت جلال الدين بن محمد بن خوارزم الذي ذكر في الفصل الأول، هذا الرجل خال قطز، والده ابن عم جلال الدين، تربى في بيت الملوك والأمراء، سليل الحسب والنسب، ولكن عند انهيار الدولة الخوارزمية وقع في أيدي التتار الذين باعوه في أسواق النخاسة، بالمناسبة هم من أطلق عليه هذا اللقب الذي يعنى في لغتهم (الكلب الشرس)، فقد كان قطز منذ صغره بطلًا قويًا، صعب المراس، وانتقل في البلدان من خوارزم للشام واشتراه أحد الأيوبيين حتى يستقر به المقام في مصر، ذهب من سيد إلى سيد حتى وصل إلى خدمة المماليك المعزية، تدرج في الخدمة حتى وصل لخدمة الملك المعز أيبك،

الذي أُعجب بشجاعته وبأسه حتى أصبح قائدًا الجيش، كان له مهارة فائقة في القتال والكر والفرّ، علاوة على علمه وتفقهه في الدين؛ مما جعله بعد موت أيبك الرجل الحاكم لمصر خلف الستار، كم هي الدنيا صغيرة، وكم هي الأيام عندما تتداول، إنها أشبه بالخيال، فقد كان في استطاعة التتار منذ اجتياحهم الدولة الخوارزمية أن يقتلوا قطزًا كما هي عادتهم مع الأطفال والأسرى، ولكن هي إرادة الله التي جعلت من ذلك الأسير عند التتار، رجلًا قويًا وحاكمًا يواجههم في أهم وأخطر معاقل الإسلام، أرض الكنانة.

الان الوضع في مصر حرج، في سنوات قليلة مات عدة ملوك دفعة واحدة، بداية من وفاة الصالح نجم الدين أيوب، طوران شاة، أقطاي، عز الدين أيبك، شجرة الدر، وأخيرًا أصبح في الحكم طفل في الخامسة عشر تحت وصاية قطز.

قطز يدير الأمور بالفعل، لكن أمام العالم فحاكم مصر طفلًا مما يضعف الشكل العام فالأعداء في الخارج من تتار وصليبين، وأمراء الشام الطامعين، وأيضًا ثورات في الداخل من بقايا المماليك البحرية الطامعين في الفرصة، لذلك حسم قطز الأمر فعزل نور الدين الطفل ليصبح هو الحاكم الفعلي لمصر، وأمام العالم.

مصر هي أهم دولة في المنطقة وفى نفس التوقيت عام ٦٥٧ هجريا كان التتار على مشارف حلب والخطر قد اقترب، ولذا استطاع حسم الأمور لمحاولة إعادة كفة الميزان للتوازن .

قام قطز بتغييرات جذرية للدولة وإعدادات أقل ما يقال عنها أنها تاريخية لكي يستعد ويهيئ البلاد للخطر القادم والأكيد.

الوضع الداخلي: مترددٍ أمنيا، سياسيًا، عسكريًا، واقتصاديًا، هناك فرقة بين المماليك البحرية المريدة لشجرة الدر وأقطاي ضد المماليك المعزية المؤيدة الآن لقطز.
كثرة الفتن والاغتيالات أثرت على الوضع الأمني والاقتصادي.
خارجيا: كما ذكرنا علاقات مقطوعة تمامًا مع بلاد الشام لدرجة أن البعض منهم فكر في غزو مصر.
الصليبين وأطماعهم وخصوصا بعد هزيمتهم في المنصورة.
المارد التتري الذي يتبقى له أجزاءً صغيرةً من الشام لينتقل لأصعب وأهم محطات الشرق.
ماذا فعل قطز؟
كيف تُبنى أمة، كيف حال الأمم عندما يحكمها الرجال؟
أولا: استقرار الوضع الداخلي:
يجب قطع أطماع الطامعين في الحكم، هل حاربهم وقتلهم؟ هل فعل لهم المؤامرات والمكايد ودبر لهم الاغتيالات؟ لا بل سلك طريقًا آخرَ؛ اجتمع بكل النخبة في المجتمع، من وجهاء، أدباء، فقهاء، عسكريين، علماء، وزراء، وأكد لهم أنه لم يعزل الطفل ويأخذ الحكم طمعًا وشهوةً في السلطة؛ بل كان السبب الرئيسي توحيد البلاد من أجل مواجهة التتار، فلن يستقيم الأمر إلا بذلك، وهذه القوة الغاشمة قادمة لمواجهة بلد يحكمها طفل، إذا انتصرنا ودحرنا ذلك المعتدي فلكم الحرية في اختيار الحاكم المناسب، أنا لا أرغب في الحكم، كل هدفي هو مواجهة ذلك المارد الخطير، لننتهِ من مشكلة التتار ولكم ما شئتم، استطاع قطز أن يجمع الناس حوله بتوضيح خطر التتار، يستطيع الحاكم توحيد

الأمة حوله عند معرفة خطر عظيم مما جعل الشعب والأمة تتوحد وتلتف حول ذلك القائد.
ثم بدأ بإصلاحات داخلية شديدة فقد استلم تركة مهلهلة، بيت آيل للسقوط، كانت مصر تعاني معاناة شديدة، بدأ يوحد الصف الداخلي بمحاولة التفاف كل القوى داخل مصر حول شيء واحد، خطر واحد، مشكلة واحدة هامة ومصيرية وهي التتار.
الخطوة الثانية؛ أصدر قرارًا بالعفو العام الحقيقي عن كل المماليك البحرية، قد ذكرنا أنه بعد وفاة أقطاي وسيطرة المعز أيبك على مقاليد الحكم خرج معظم قادة المماليك البحرية من مصر خوفا من تلقي نفس مصير أقطاي، منهم من ذهب للسلاجقة الأتراك، ومنهم من ذهب للشام، كانت خطوة في منتهى الأهمية من قطز، إن دلت على شيء فإنما تدل على أننا أمام قائد ذكي يتمتع بقدر بكبير من الواقعية السياسية وبُعد النظر، خصوصًا أنه أعطاهم أمانًا وعفوًا حقيقيًا وشاملًا، لا مجرد إجراءٍ وقتيٍّ، ضرب قطز بهذا الحجر عدة عصافير كثيرة بحجر واحد، منها أنه أصبح القائد المثالي الذي يهمه مصلحة الوطن ويضعها فوق أي اعتبارات شخصية، مما زاد من حب الناس له والتفافهم حوله.
- استمال المماليك البحرية له وأزال الحاجز المتواجد بينهم وبين المماليك المعزية، مما قوى من الجبهة الداخلية .
- ازدادت قوة الجيش بشكل كبير، فمن المؤكد أن المماليك المعزية لم تكن تستطيع دخول تلك الحروب والمواجهات المتوقعة وحدها دون مساعدة المماليك البحرية، بل زاد قطز من الشعر بيتًا حيث قام بتعين أقطاي الصغير (غير فخر الدين

أقطاي) وهو من المماليك البحرية في منصب قائد الجيش، لما له من براعة وقوة ومهارة عسكرية وأمانة أيضًا، لم يقلق منه لأنه من المماليك البحرية، لم يبعده ويأتِ بأحد من خاصته حتى لو لم يكن كفأً للمنصب؛ بل اختار الأصلح ونحَّى مصلحته الشخصية جانبًا، هذا هو القائد المخلص والرجل المؤتمن.

إن استمالة المماليك البحرية والتمكن من عودتهم مرة أخرى لصفوف البلاد والجيش يدل أننا أمام قائد داهية بكل ما تحمل الكلمة من معنى، وبالفعل عادت المماليك البحرية من كل مكان، من تركيا والكرك والأردن، ولكن كان عودة المماليك البحرية في جانب وتمكنه من إعادة قائدهم وأحد أمهر قيادات الجيش في جانب آخر، حيث راسل ركن الدين بيبرس وطلب منه العودة من بلاد الشام، كان بيبرس مع الناصر يوسف في الشام وكان ينكر عليه ما حدث، وعندما خرج كل الجيش كما ذكرنا من دمشق خرج معهم بيبرس مضطرًا؛ فقد كان وحده لا يكفى لمواجهة التتار، وهناك فرَّ الجيش وتفرق ووجد بيبرس نفسه وحيدًا في خط العودة في غزة، في هذه الأثناء وصلت له رسالة ترحيب من قطز الذي أكد له دوره في القيادة، يعرض عليه أن يأتي معززا، مكرمًا، مرفوع الرأس، مقدم المقام، إذا كانت مكاسب قطز في عودة المماليك البحرية ذات نجاح كبير فأرى أن نجاحه في عودة بيبرس تفوق كل المكاسب السابقة، حيث برجوع بيبرس امتلك قطز زمام الأمور تمامًا واطمأنت له كل المماليك البحرية بعودة قائدهم، بل وزادت ثقتهم فيه، ثقلت كافة الجيش بعودة واحد من أمهر القادة العسكريين، بدأ جو من الألفة ينشأ بين قطز والشعب الذي رأى

من قطز قائد كيِّس فطن، يقدم مصالح الوطن أولا، حيث كان أولى به أن يترك بيبرس بعيدًا عن الساحة حتى لا يخطف منه الأضواء ويذاع صيته، وخصوصًا بعد بلائه الحسن ضد الصليبيين في المنصورة وفارسكور، ولكن كان قطز قائدًا مثاليًا يغلب مصلحة الوطن والشعب على أي مصلحة شخصية، فإذا اصطدمت مصلحته الشخصية مع مصلحة الوطن فليذهب هو إلى الجحيم، بل زاد قطز حيث أقطع بيبرس منطقة قليوب بأكملها.

الخطوة التالية بعد استتباب الأوضاع الداخلية وتعامل قطز بحنكة بالغة في تهيئة الوضع الداخلي، أصبح الدور الآن على الوضع الخارجي، وبدأت تهيئة الأوضاع الخارجية، بدأ بالناصر يوسف والي دمشق وحلب وذلك قبل قدوم التتار لحلب، بعث له رسالة ود ومحبة وهو يعلم أطماع الناصر يوسف في مصر، ماذا كان في هذه الرسالة؟

لك أن تتخيل أن قطز أكد للناصر يوسف مشاعر الإخوة بين مصر والشام، بل وعرض عليه مباشرة حكم مصر وأنه لا يمانع أن يكون هو ملك مصر والشام، وأن يكون قطز تابعًا له.... تخيل؟

قطز الآن أقوى بكثير من ذلك الحاكم المتخاذل، بل مصر عامة أقوى بمراحل من دمشق وحلب، وعرض عليه التوحد أو المساعدة أمام التتار، لكن ماذا كان رد فعل الناصر يوسف ذلك الخائن المتخاذل؟

رفض الوحدة، بل رفض المساعدة وهرب بجيشه من دمشق إلى فلسطين كما ذكرنا، وهناك تركه كل جيشه ليهرب إلى الصحراء ومنها إلى الأردن.

رجع الجيش بأكمله إلى مصر وكان فضلا من الله أثاب به قطز لأنه رجل مخلص، كان سيتنازل عن الحكم من أجل توحيد الصف ودعم الجيش، بل سيرضى أن يكون ملكه ذلك المتخاذل في مقابل الوحدة، ولكن الله أعطاه ذلك الجيش كله وبدون هذا الفأر الجبان، هكذا يكافئ الله المخلصين، وهكذا تكون عطاياهم من حيث لا يحتسبوا.

لم يكتفِ قطز بالناصر يوسف؛ بل أرسل للمغيث عمر أمير الكرك ولكنه أيضًا رفض التوحد، رغم أنه كان طامعا أيضًا في مصر.

الأشرف الأيوبي والسعيد حسن صاحب بنى ياس رفضوا طلب قطز بل وانضموا للتتار.

حاول قطز بكافة السبل مع هؤلاء الخونة ولكن من الصعب تغيير الجينات في مرحلة الكهولة، ليس سهلا أن تولد جبانا، متخاذلًا ثم تتحول مرة واحدة لرجلٍ مخلصٍ محبٍ لدينك ووطنك.

ظن قطز أن كل الرجال مثله وغفل عن أنه كما يوجد رجال فهناك أشباه الرجال.

الشعب المصري كان يعاني من أزمة اقتصادية كبيرة وطاحنة، كانت تعصف بالحياة، وعند ظهور الأزمات الاقتصادية تغيب مصلحة الوطن والتنبه للأخطار الخارجية وينحصر اهتمام الناس على لقمة العيش، ولكن قطز استطاع التعامل مع تلك المشكلة؛ حيث حفَّز الناس على الحفاظ على الوطن وضرورة صد ذلك

المعتدي، بدأ برفع الروح المعنوية وتذكيرهم بمذابح التتار مع إخوانهم، تهيئة نفسية من خلال العلماء والأدباء، وساعد قطز على ذلك شيئان هامان:

أولا: الاهتمام بالعلوم الشرعية والعلماء ودروس العلم، حيث أنه برجوع الناس للدين والأخلاق الحميدة تستطيع إدخال المفاهيم الصالحة والبناءة لذلك الشعب، بمرجعية دينية تحث على الأخلاق الحميدة والمروءة والشجاعة؛ تستطيع زرع مفاهيم الكفاح والنضال عند الشعب وهو مالم يكن موجودًا في بغداد والشام كما ذكرنا، حيث كان شعب مصر على الرغم من الأزمة الاقتصادية يوقر العلماء ويحترم رأيهم ويقتنع بكلامهم، يثق فيهم وبالتالي سهل توجيه ذلك الشعب للاتجاه الصحيح وهو الحفاظ على الوطن والأرض، ولنا في العز بن عبد السلام أفضل مثال؛ حيث كان له دور في شحن الهمم وإيقاظ شعلة النضال والكفاح عند المصريين، كانت دروسه صمام أمان لكل الناس كي يثقوا في قادتهم وفى ضرورة الاستعداد للخطر القادم .

بذلك أصبح هناك وعيٌ كاملٌ للشعب المصري وهذا أمر هام في ميدان المعركة، فالجيش لن يحارب وحده إذا كان الصف الداخلي في واد آخر، عندما يكون الشعب والجيش على قلب رجل واحد تتغير الموازين بلا شك ويصعب الاختراق أو التوغل لداخل تلك البلد.

تمكن قطز بذلك من تغيير الوضع الداخلي واستمالة المماليك البحرية وبيبرس وكسب ثقة الشعب وتهيئته لأهمية تلك المعركة، وبدأ في إعداد الجيش الذي استفاد بلا شك من رجوع

المماليك البحرية وأيضًا المنحة الربانية بدخول جيش الناصر يوسف وأجزاء من جيوش حمص إلى الكتائب المصرية.
وفى هذا الأثناء كان التتار يتقدمون في مدن الشام التي فتحت أبوابها بسهولة كما ذكرنا حتى اقتربوا من غزة.
وبينما قطز يستكمل بناء الأمة، يعد العدة، يستعد في كافة الجبهات، يقوي الجيش، يلهب عواطف الشعب، يرتب الصفوف، يفعل كل ما في وسعه لكي يسابق الزمن بكل ما يمتلك من قوة، بينما يفعل كل هذا إذا بقرب اللحظة الفارقة يأتي، يبدو أن الامتحان قد آن موعده، جاءت رسل هولاكو للقاهرة، جاء رسل الخراب والدمار لأرض للمحروسة، فوجئ قطز بضيوف غير مرحب بهم تمامًا، وذلك بعد شهور فقط من حكمه، لم يستكمل التقاط أنفاسه، أرسل هولاكو رسالته إلى قطز ينبئه بقرب مجيء التتار لأرض الكنانة.
جاءت الرسل بالتهديد والوعيد، بالتحذير، والنفير، وكانت رسالة مخيفة جاء فيها:
" من ملك الملوك شرقًا وغربًا الخاقان الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء يعلم الملك المظفر قطز، الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم، يتنعمون بأنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك، يعلم الملك المظفر قطز، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته، بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه. فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم وأسلموا لنا أمركم، قبل

أن ينكشف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن لا نرحم من بكى، ولا نرقّ لمن اشتكى، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب، فأي أرض تأويكم، وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ومطركم علينا لا يُسمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفون عند كلام، وخنتم العهود والأيمان، وتفشى فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان، (فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) - (سورة الأحقاف آية 20) (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)(سورة الشعراء آية 237). فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم. فإن أنتم لشرطنا وأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذر من أنذر، وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدّرة والأحكام المدبرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير الأهنة لملوككم عندنا سبيل. فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاهًا ولا عزًا، ولا كافيًا ولا حرزًا، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفنا إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم، والسلام علينا

وعليكم، وعلى من أطاع الهدى، وخشى عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى. فهل علم)

من الواضح طبعًا في الرسالة أن من كتبها له أحد الأدباء العرب المسلمين الذين اشتراهم هولاكو بالمال، حيث أمده بلغة رنانة بالإضافة إلى الاستشهاد بآيات من القرآن الكريم، لم يترك هولاكو أي شيء إلا وفعله في حروبه، حتى في اختيار الرسالة المكتوبة، رسالة تخلو من أي نوع من الدبلوماسية، رسالة شديدة اللهجة، كان رد قطز هو قتل هؤلاء الرسل كي تكون رسالته واضحة بإعلان الحرب، رد عملي على التتار، وأيضًا لشعبة وأمرائه الذين انتابهم خوف وقلق من رسالة هولاكو، هو قطع كل الطرق على أي أحد يفكر في الاستسلام، حيث من الصعب أن يغفر هولاكو هذا لأهل مصر، فإذن لا مفر من المواجهة، أمر بقتل الرسل وتعليق رؤوسهم على باب زويلة، وموضوع قتل الرسل ليس مجالنا الآن ولو أنّي أرى أنها غلطة كبيرة لقطز يغفرها له ما قدمه أمامها للأمة.

قطز كي يشجع الناس وقف وأكد أنه الحاكم ولكنه سيكون في المعركة بنفسه، لن يجلس يخطط وهو في القاهرة ولكنه سيكون أول من يواجه التتار مما حفز كل الأمراء على الدخول في الحرب.

لكن تبقت المشكلة الاقتصادية وكانت كبيرة، اجتمع قطز بكافة العلماء واقترح فرض ضرائب على الناس لتسد حاجة القتال، ولكن اعترض العز بن عبد السلام العالم الجليل الذي أوضح رأي الشرع في هذه المسألة وهي أن تستنفد كل قوة وموارد الدولة من أجل الدفاع عن الوطن ولكن يأخذ أولا من الأمراء والوزراء والوجهاء لا من عامة الشعب، فإذا فرض على عامة الشعب تعتبر

مكوث وهي محرمة شرعا، ولا يجب أن يجهز جيش ذاهب لمعركة فاصلة بمال حرام، استمع قطز لرأي وفتوى سلطان العلماء آنذاك، العز بن عبد السلام وبالفعل بدأ بنفسه ووضع كل ماله تاركا فرسه فقط طالبا هذا من كافة الأمراء.

خطة قطز كانت مباغتة التتار في فلسطين، لا أن ينتظر مجيئهم إلى مصر، قطز كان له بعد نظر وذلك حيث يجب إبعاد ساحة المعركة عن مركزه ومكانه حتى تظل القاهرة في مأمن، علاوة على عنصر المفاجأة الذي لم يجده التتار في أي معركة خاضها.

اقتنع الأمراء برأي قطز وبدأ الجد والكفاح، العمل والتضحية، ذهب وقت الهزل وجاءت مرحلة المطبات الصعبة، بدأ العلماء يحفزوا الناس للتضحية والشهادة في سبيل الله، ذكروهم بضرورة الدفاع عن الأرض والعرض، وقاد تلك الحملة الشيخ العز بن عبد السلام، وكان لعلماء الأزهر دور كبير في تلك المرحلة الإعلامية .

استمر الإعداد منذ مجيء رسل هولاكو ولمدة خمسة شهور، كان استعدادًا شاملا، اقتصاديًا، اجتماعيًا، إعلاميًا، وعسكريًا، وفوق كل هذا استعدادًا أخلاقيًا.

تبقت مشكلة جديدة قبل مباغتة التتار في فلسطين، وهي الإمارات الصليبية الموجودة في الشام والتي يجب أن يمر عليها جيش مصر في الطريق لفلسطين، فكر قطز في مصالحة والي عكا وتحييد موقفه وذلك لضمان طريق آمن لفلسطين، وخصوصًا أن عكا إمارة حصينة جدًا استعصى على معظم القواد فتحها، وبالطبع سيتم تشتيت جهد الجيش إذا فكر في ذلك، ولكن استطاع إبرام معاهدة صلح مع عكا ليكون الطريق لفلسطين آمنا.

خرج من الصالحية في الشرق متجها لسيناء ليتجه إلى غزة وكان ذلك عام ١٢٦٠ م في شهر يوليو في طقس حار جدًا.
وضع قطز على المقدمة ركن الدين بيبرس ليكون في البداية، قائد عسكري فذ يجعل المبادرة لجيش مصر وفصلها عن باقي الجيش لتختفي عن أعين التتار وتظن أن تلك المقدمة هي كل الجيش، اجتاز بيبرس الحدود ودخل فلسطين وباقي الجيش في مصر، اجتاز بيبرس رفح، وخان يونس وبدأوا في الاقتراب من غزة واصطدموا بحامية تتارية في غزة منحت بيبرس انتصارًا معنويًا، وفرَّ باقي الحامية لسهل البقاع حيث يوجد جيش كاتوبغا الذي فوجئ بمباغتة جيش مصر.
المفاجأة كانت في وجود قواد مسلمين يحاربون، بل يأتون للتتار لا ينتظرونهم في بلادهم، اندهش التتار حيث ألفوا على مدار العقد الماضي على مقابلة أشباه رجالي يركعون لهم، بل ويسلموا لهم مفاتيح بلادهم، لم يعتَد التتار على مواجهة رجال حقيقيين، ليس فقط يدافعوا عن أرضهم، بل يأتوا هم ليباغتوهم، معركة غزة لم تكن مكسبًا حربيًا أو عسكريًا أو عدديًا، لكن أرى أنها من أهم المعارك التي كسرت لأول مرة حاجز الهزيمة النفسية عند الناس الذين اعتادوا أن يروا الكل يفر أمام التتار، أصبح التتار الآن هم من يفر، وهذا كان له دور هام في رفع الروح المعنوية للجيش المسلم .
لكن هل تكفي غزة؟ هل يكفي طرد حامية تتارية ليطمئن كل المسلمين في مصر والحجاز وغرب العالم الإسلامي لهذا الوحش الكاسر؟ هل يضمن ألا يعاود الكر مرة أخرى؟

بالطبع لا، تحركت الجيوش الإسلامية نحو سهل عين جالوت وبدأ قطز يدفع بمقدمة الجيش تحت إمرة بيبرس ووضع معه أمهر القادة لأنهم سيتلقون الضربة الأولى، بدأ كاتوبغا بمجرد وصول خبر معركة غزة بجحافل التتار في الشرق كله ليصل إلى فلسطين الحبيبة، أخبرت عيون التتار كاتوبغا أن كل تعداد جيش المسلمين هو مقدمة الجيش بقيادة بيبرس حيث اختفى قطز وباقي الجيش خلف السهل.

ما هو سهل **عين جالوت**؟

سهل عين جالوت هو أحد السهول الموجودة في فلسطين بين بيسان شمالا وجنين جنوبا وهو منبسط على شكل حدوة الحصان، حيث تكون المنفذ أو الممر له من الشمال أما باقي الجهات فهي مغلقة تقريبًا بالأحراش والأشجار الكثيفة التي تصلح لاختفاء الجيوش.

لذا اختاره قطز ليكون ميدانا للمعركة كي يساعد في اختفاء باقي الجيش عن أعين التتار.
أخذ قطز بالأسباب ولم يستسلم أو يسلم أرضه، ناضل وكافح، عمل ما في بوسعه رغم قلة عدد جيشه ليواجه أعتى قوة على وجه الأرض آنذاك، لذا سيكافئه المولى عزو وجل وتابع معي تلك العطايا الربانية التي سبقت المعركة مباشرة:
- الأهالي الفلسطينيون خرجوا من القرى والمدن ليلتحقوا بالجيش المسلم، ومن لم يقدر على القتال قام بالتمريض أو الشد من أزر المقاتلين.
- صارم الدين أيبك أحد معاوني التتار وساعدهم قبل ذلك، أرسل رسولًا لمقابلة قطز وأعلن عن ولائه لجيش للمسلمين وأعطى ثلاث معلومات هامة جدًا لقطز منها أن جيش التتار ليس بنفس قوته لأن كثيرًا من القوات أخذهم هولاكو أثناء رجوعه لعاصمة المغول، توضيح قوة الميمنة التتارية عن الميسرة، الأشرف الأيوبي يعلن تأييده لجيش المسلمين ولقطز رغم وجوده في جيش التتار.
عطايا ومنح ربانية لا تعطى لأي أحد، لن تعطى لملك متخاذل أو قائد جبان، لن ينصر ربك جيشًا غارقًا في اللهو أو شعبًا نسيَ أوامر ربه؛ بل ينصر من أطاعه وأخذ بأسباب النصر.
كانت ليلة المعركة ليلة الخامس والعشرين من رمضان، أخذ الجيش في قيام الليلة والتضرع والدعاء لرب العالمين، ولم يكن دعاءً وتضرعًا منهجه التواكل والكسل، بل كان مع هذا التضرع والرجاء عزيمة وعمل واستعداد جنبًا لجنب مع الطلب من الله .

بدأت المعركة الموعودة وبدأ اللقاء المرتقب، تناثرت الأشلاء، وقطعت الرؤوس، انتشرت الدماء وغطى صوت صليل السيوف عن كل الأصوات، تعالت الأصوات، ووقع القتلى في الطرفين وصمدت المقدمة المسلمة أشد الصمود، وبدأت الأوامر لبيبرس بالانسحاب والتراجع التكتيكي للخلف كي يستدرج قوات التتار داخل السهل، ولكن هذا الانسحاب يحتاج لتوازن رهيب فلا يكون سريعًا كي لا يلفت نظر التتار ويشك كاتوبغا في الأمر؛ وبالتالي لن يدخل السهل، وأيضًا لابد ألا يكون بطيئًا حتى لا يفتك التتار بالجيش ويهلك عن بكرة أبيه.

وبدأ التراجع النسبي، ووجد كاتوبغا مقدمة المسلمين كلها داخل السهل المغلق تقريبًا فسال لعابه، وأطبق بكل جيشه داخل السهل، وهي منحة ربانية أخرى تأتي لمن يستحق، كاتوبغا لم يكن قائدًا مبتدأً أو حديثَ العهد بالحروب؛ فهو قائد منذ أكثر من ثلاثين عامًا، أي حضر معظم حروب التتار منذ وقت السفاح جنكيز خان، فكيف يقع في مثل هذا الخطأ ويرمى بكل جنوده في ذلك السهل المجهول؟

إنها جائزة الرجال، منح الشجعان يعطيها الله لمن تعب وخطط وكافح، لمن ناضل وأخذ بالأسباب، لمن خاف على مصلحة أرضه ووطنه، فالله لا يعامل كل الرجال بنفس الطريقة، فقطز يستحق تلك المنحة، فلو تكرر الأمر مئة مرة لم يقع كاتوبغا في ذلك الخطأ الفادح، دخل القائد المغرور السهل وهنا كانت المفاجأة؛ ظهرت بقية الفرق الإسلامية من خلف الأشجار وكان بمثابة المنظر المرعب للتتار الذين أصبحوا الآن بين فكي الرحى من كل الجهات،

دار قتالا شديدًا وتماسك التتار وبدأت الميمنة التتارية تتوغل من خلال الميسرة الإسلامية، تساقط القتلى ولو استمر الأمر على هذا الحال سيخترق التتار قلب الجيش من خلال الميسرة، صعد قطز أعلى السهل وأخذ يحفز في الجنود بالتماسك قائلًا كلمته الخالدة... وإسلاماه... لن يضيع الإسلام من خلالنا.

نزل قطز بنفسه وهو الملك المظفر والقائد الشجاع، نزل يعلم الجند بنفسه أن أقل ثمن نقدمه لله ثم لوطننا هو أرواحنا، وجد الجند ذلك فرفع ذلك من معنوياتهم وأخذ الفلاحون الفلسطينيون من فوق السهل يكبرون ويهللون وبدأ تماسك ملحوظ للميسرة المسلمة وخصوصًا بعد إضافة قوات لها من

قطز، اشتد القتال والتهب الموقف، قاتل الجنود بقوة يتقدمهم قطز، واستمر الإطباق على التتار من الأمام والخلف، وجاءت عطية ربانية جديدة، حيث أقدم جمال الشامسي أحد أمراء الشام الذين انضموا للجيش المصري على مجابهة كاتوبغا قائد التتار، وبدأت مباراة جانبية بين العجوز التتري والقائد الشامي الذي أطاح برقبته على الأرض، والفلاحون يهللون ويكبرون، وقوع كاتوبغا صريعًا أمام جنوده في قلب الجيش أصاب الجيش بالرعب، كانت نقطة محورية بكل المقاييس في القتال فقد قطعت رأس الحية، فقد التتار أي توجيه وانقطع الاتصال بقادتهم، وأصبح كل هم الجنود التتارين أن يوجدوا ثغرة في شمال السهل يفرون منها، قتل منهم الكثير وأسر الأكثر، هزم التتار وانكسرت شوكتهم، ضاعت هيبتهم وانكشف أمرهم وأصبح يوم الخامس والعشرون من رمضان لعام ٦٥٨ هجريا يومًا مشهودًا، أصبح يوم عين جالوت، يوم من أيام الله كيوم حطين والقادسية، خلد ذكره في التاريخ كيوم بدر واليرموك، حفرت أسماء هؤلاء الأبطال في القلوب والعقول قبل أن تحفر في سجلات التاريخ، وبعد مدة طويلة من الكر والفر استطاع بقايا الجيش التتري فتح معبر في الشمال ليخرجوا إلى بيسان في الشمال وخلفهم المسلمون يحاصروهم، دارت موقعة في بيسان موقعة شديد الضراوة وصمد التتار صمود كبيرا حيث أنهم يدافعوا عن حياتهم، وجاء قطز يحفز الجنود للإطباق على التتار وألا يتركوا منهم أحدًا، وبالفعل استطاع المسلمون إبادة جميع البقية التتارية !! قتل الجيش بأكمله ولم يتبقَ منهم رجلا واحدًا، تساقط التتار في بيسان كالذباب، لم يوجد

تتاري واحد ليخبر التتار في الشام عما حدث في عين جالوت، فني الجيش الذي استباح شرق العالم الإسلامي، أعز الله جنده ونصرهم، وسرعان ما سجد قطز على أرض بيسان ليشكر الله على فضله، لم يتعالَ ويرفع رأسه وهو سبب في إيقاف أكثر قوة دموية في تاريخ الأرض، لم يتكبر قطز وهو من هزم الجحافل البربرية التي قتلت من العالم الإسلامي والمسيحي على حد سواء بالملايين، لم يغتر قطز بما فعل ولكن شكر ربه وأعاد الفضل لخالقه، استمرت ملاحقة قطز للتتار حتى حررت الشام كلها وخرج منها التتار هربا بعد ثورة أهل دمشق وحلب ضدهم وخصوصًا بعد وصول أخبار الانتصار الإسلامي وإبادة جيش التتار في بيسان، خرج أهل دمشق يستقبلون الملك المظفر الذي كان سببًا في إزاحة الغمة، أرسل قطز بيبرس لكل مدن الشام، حمص، حلب، التتار يفروا منها والمسلمون خلفهم حتى عادت الشام بالكلية للدولة المسلمة وفر التتار بلا عودة، اندحر الجيش الظالم والباغي، انهزم الظالمون السفاحون، لابد أن ينتصر الحق مهما طال الوقت ولابد أن يأتي الفجر مهما طال الليل، كان فجرًا مشرقا مداويا لكل الجروح التي امتدت من أقصى الشرق حتى حدود غزة، انتهت أسطورة التتار وانكسرت على أيدي الرجال، ظن التتار أنهم يواجهون أمة أشباه رجال فعاثوا في الأرض فسادا لمدة تزيد عن الثلاثين عاما، ظنوا أن رجال الأمة من عينة بدر الدين لؤلؤ أو المستعصم، ليس كل رجال الأمة مثل الناصر يوسف وابنه أو مغيث الدين، ليس كل القادة المقاتلين مثل محمد بن خوارزم أو جلال الدين ابنه، لكن الله أوجد رجالًا حقيقيين كانوا قادرين على

إركاع التتار وكسر شوكتهم؛ مثل قطز وبيبرس وجمال الدين الشامسي، حتى من هزم وقتل فقد أدى واجبة في حدود إمكانياته ونقصد بالتأكيد الكامل محمد الأيوبي.

إن اختلاف الرجال على قدر غرابته وقساوته، على قدر متعته وحلاوته، فماذا كنا سنفعل إذا كان رجال الأمة كلهم أمثال الناصر يوسف والمستعصم؟ هل كان سيقوم للامة قائمة إذا تشابهت الرجال على نفس المستوى؟

والله إنها لنعمة بحيث نرى هؤلاء ثم تقر أعيننا لنرى ركن الدين بيبرس وسيف الدين قطز.

ما هو حال الشعب إذا كان كله من عينة عامر الجبان الذي كل همه جمع المال والعيش لحياته الخاصة دون التفكير في دينه أو وطنه، لكن الله كما أوجد عامر أعطى لنا شمس الدين المناضل المكافح الذي كان في السلم مثالا يحتذى به في الصدق والأمانة وهو الآن في الحرب أصبح مثالا آخر للرجولة والشهامة، عاش عامر لمستقبله وخططه وحياته فقط، وعاش شمس الدين يتبنى قضايا أمته وشاء الله أن يموت عامر بلا ذكرى أو وريث يأخذ ماله، ولكن مات شمس ليترك بنتا جميلة تكون زرعا حسنا وذكرى طيبة، تعلم أولادها الصدق والأمانة، الإخلاص والشهامة، الإقدام والشجاعة، هكذا كان هناك فرق بين الرعية كما وجد بين الرعاة .

الاختلاف نعمة كما ذكرنا وبه يفهم الإنسان أيهما يسلك هل طريق الاستسلام والخضوع أم طريق الإباء والعزة.

متابعة سلوك الرجال وأخلاقهم تخلق لك جوًا من الإبداع وحسن التصرف، بل والتخطيط لكل الأفراد من أصغرهم حتى قائدهم،

فمن يدقق النظر ليرى ماذا فعل قطز ليعد الأمة، ماذا أنجز وأوجز، تغلب على العقبات وعبر الأزمات، تكيف مع الامور ولينها حتى أصبحت مطاعة في يده، اختلف عمن قبله في كل شيء، في الوقت الذي وثق المستعصم في رجل خائن سلمه كل شيء، أعطى قطز ثقته لمن يستحق حتى لو كان من غير أتباعه، في الوقت الذي نامت فيه أعين الخليفة وامتلئ جفنه لآخره، لم يعرف قطز طعم النوم وأخذ يذهب هنا وهناك ليعد العدة، في الوقت الذي كانت أول الحلول عند الناصر يوسف هو الانبطاح، وعندما وجد حلا بديلا وهو إعداد معسكر قرب دمشق بمجرد علمه بقدوم التتار فر هاربا كالفأر، مثلما عاقب الله الأمة بوجود رجال أمثال المستعصم، الناصر، بدر الدين لؤلؤ، عامر، أثابها الله بوجود رجال أمثال سيف الدين قطز، ركن الدين بيبرس، جمال الشامسي، شمس الدين.

قصة التتار من أغرب القصص التي عندما تقرأ فيها تجد تباين غريب، اختلاف بين الرجال والقادة، بين الأمم والشعوب، شعوب استسلمت مثلما حدثت مع بغداد وحلب، وأخرى قاومت وناضلت كما حدث مع ميافارقين ومصر المحروسة، تباينت المواقف والأفعال مع تشابه الظروف والأحوال، لكنها اختلفت أيضًا في النهاية والمآل، كانت محنة التتار ترمومترًا حقيقيًا لاختبار درجات الرجال، كانت قاسمًا وفارقًا انقسم فيه الرجال لفسطاطين لا ثالث لهما؛ رجالٍ بمعنى الكلمة والحال والأفعال، وآخرين كل علاقتهم بالرجولة هي الكلمة والمقال.

© جميع الحقوق محفوظة

www.bibliomaniapublishing.com

2021